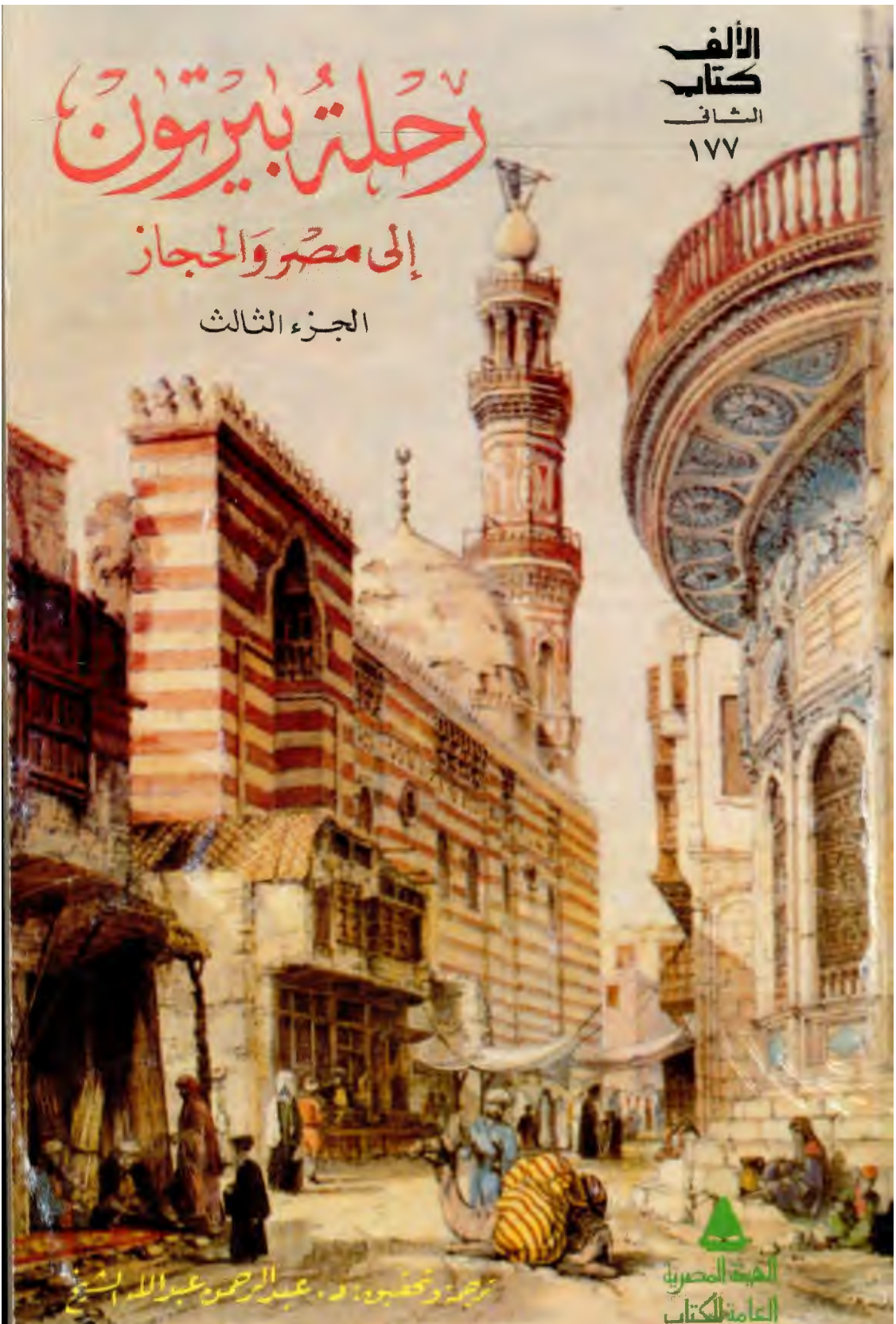


الألف
كتاب
الشاف
١٧٧

رحلتنا بدمشق

إلى مصر والحجاز

الجزء الثالث



ترجمته وتحققه: د. عبد الرحمن عبد الله الشافعي

الهيئة المصرية
العامّة للكتاب

هذه صفحة مفعمة بالحياة لأحوال مصر الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بل والسياسية في منتصف القرن التاسع عشر، يزيد من قيمتها أن كاتبها ليس بشخص عادي، وإنما رحالة عالم طبقت شهرته الآفاق هو الأيرلندي ريتشارد بيرتون الذي زار مصر في غضون سنة ١٨٥٢، أم في أواخر عهد عباس باشا الأول (١٨٤٨ — ١٨٥٤) وكانت مصر يومئذ تمر بمرحلة انتقال خطيرة كان لها أبعادها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية..

وفي الجزء الثالث والآخر من رحلته يعرض لزيارته لمكة المكرمة والطريق إليها ولمناسك الحج وللعادات والتقاليد وما إلى ذلك ...

رَحَلْتُ بَيْرَتُونَ
إِلَى مَصْرٍ وَالْحِجَازِ

الألفا كتاب الثاني

الإشراف العام

و. سمير سرحان

رئيسة مجلس الإدارة

رئيس التحرير

لمنى المطيعي

مدير التحرير

أحمد صليحة

الإشراف الفني

محمد قطب

الإخراج الفني

محسنة عطية

رِحْلَةُ بِيرْتُونْ إلى مصر والحجاز

الجزء الثالث

تأليف
رفشارد ف. بيرتون

ترجمة وتعليق
د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ



المطبعة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٥

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٧	مقدمة الترجمة العربية
	الفصل السادس والعشرون
١١	من السويرقية الى مكة (المكرمة)
	الفصل السابع والعشرون
٣٥	أول زيارة لبيت الله (الحرام)
	الفصل الثامن والعشرون
٥١	شعائر يوم التروية (اليوم الأول)
	الفصل التاسع والعشرون
٦١	شعائر يوم عرفات (اليوم الثانى)
	الفصل الثلاثون
٦٩	يوم النحر
	الفصل الواحد والثلاثون
٨١	أيام القديد الثلاثة
	الفصل الثانى والثلاثون
٨٩	الحياة فى مكة وأداء العمرة
	الفصل الثالث والثلاثون
١٠١	المواضع التى يقصدها الزائرون للتبرك
	الفصل الرابع والثلاثون
١٠٩	الى جدة

مقدمة الترجمة العربية

يتعرض بيرتون فى هذا الجزء الثالث والأخير من رحلته لمكة المكرمة والطريق إليها ، ولناسك الحج ، وللعادات والتقاليد وما الى ذلك . وكعهدنا به فى الجزءين السابقين فقد تناول ما يتعلق بعقائد المسلمين باحترام كامل ، وقد يكون من المفيد فى بداية هذه المقدمة أن نورد بعض التعبيرات القاطعة الدالة على ذلك . يقول بيرتون واصفا اصطفاة المسلمين حول الكعبة لأداء الصلاة : « لقد رأيت شعائر دينية فى بقاع كثيرة ، لكننى لم أر أبدا ما هو أكثر وقارا وتأثيرا مما رأيته هنا » (السطور الأخيرة من الفصل ٢١) ويقارن بين المناسك فى مكة المكرمة والمناسك فى ديانات أخرى فيقول : « وهنا - أى فى مكة المكرمة - لا نرى على أية حال خداعا غيبيا بادعاء هبوط نار سماوية بخداع كبريت الفوسفور ٠٠٠ » (الفصل ٣٢ ، ص ٢٢٨ من النص الانجليزى) ويقول : « اننا لا نرى فى مكة شيئا مسرحيا مصطنعا ولا نرى البساس الحج ، لباس الأوبرا ، بل ان كل شيء هنا بسيط ومؤثر ويملا العقل بخشية الله » (الفصل ٣٢ صص ٢٢٨ و ٢٢٩ من النص الانجليزى) .

وقد أورد بيرتون كثيرا من الآراء التى قد لا يرضى عنها القارىء المسلم ، لكنها ليست آراءه هو ، وانما هو مجرد ناقل ، ومن الطريف أنه اتخذ موقف المدافع عن الفكر الاسلامى . ومن ذلك أن بعض الوثنيين الهنود يعجب من مهاجمة المسلمين للوثنية بينما هم يعبدون الكعبة ، لكن بيرتون يعود فى الفصل ٣٢ (ص ٢٣٧ من النص الانجليزى) فيدفع هذه الفرية قائلا : « لا أستطيع أن أتحدث عن مناسك الحج عند المسلمين بعداء ، فالشعائر الدينية المتعلقة بالكعبة - وهذا حقيقى - تقلل كثيرا من كل ميل للوثنية ٠٠ لكن أين هى الأمة - سواء فى الشرق أو الغرب - التى استطاعت أن تخلص عقائدها من بقايا الوثنية القديمة ؟ ٠٠ فالفكر الدينى الانجليزى ملئ بالطفيليات الوثنية ٠٠٠ أما فى مكة ، فحتى البدوى البسيط يعلم عند طوافه بالكعبة (المشرفة) أنه لا يعبدها وانما يفعل ذلك أسوة بخليل الرحمن » . (الفصل ٣٢ - ص ٢٣٧ من

النص الانجليزى) ونقل بيرتون عن بعض الفرس ربطهم بين الطواف بالكعبة وعبادة الشمس ، ويعرف كل مسلم ، بل يعرف أصحاب الديانات الأخرى إلا صلة اطلاقا بين عبادة الشمس وبين التوحيد الخالص عند المسلمين ، وقد أورد القرآن الكريم تأكيدات جازمة من خلال حوار ابراهيم الخليل مع نفسه • انه - أى ابراهيم الخليل - رفض عبادة القمر ، ثم عبادة الشمس ، ليوجه وجهه لله سبحانه •

ويتعرض بيرتون للتفسيرات الباطنية لمشاعر الحج ويربطها بالفكر الصوفى الذى يهدف أحيانا لشغل الناس عن الفكر العلمى الواضح كما أنه وسيلة للتهرب من قيود الشريعة ، ويلاحظ انتشار هذا الفكر على نطاق واسع عند الرغبة فى قبول تأثيرات أجنبية •

الأفكار الغيبية وتوجيه التاريخ :

لقد سأل واحد ممن تعرف عليهم بيرتون عن حقيقة أن الانجيز (هكذا نطقها) أرسلوا للرسول (عليه السلام) طالبين الدخول فى الاسلام لكن بعثتهم وصلت بعد وفاة الرسول ، لذلك فإن الانجليز رغم عدم اسلامهم يكونون تقديرا لهذا الدين • ويذكر بيرتون أن هذا الكلام يردده الناس على سواحل البحرين الأحمر والمتوسط • ويقول بيرتون انه قال لهذا الشخص ليسعه ان هذا صحيح وأن حكم الانجليز مستقر فى الهند - انتهى موجز ما أورده بيرتون (الفصل ٢٢ - ص ٢٣٠ و ٢٣١ من النص الانجليزى) • من وراء انتشار هذه الأفكار ؟ لا يستبعد أن يكونوا هم الانجليز أنفسهم ، ولسنا فى حاجة لمشرح دلالات ذلك فى بدايات النصف الثانى من القرن التاسع عشر •

يقول بيرتون : « ان هناك أفكارا غيبية تنتاب العقل الاسلامى ويمكن انتشار مزيد منها فى عصور قادمة » ومن ذلك الخوف من جيش أفريقى يأتى فى آخر الزمان ليهدم الكعبة (المشرفة) ولا بد أن يكون ذلك بناء على أحاديث مكذوبة • وليس ببعيد عنا ما يتردد من أحاديث (مكذوبة) تحدد قيام الساعة ، ثم يمر التاريخ الذى حدوده ولا يحدث شئ سوى اضطراب الحركة الاقتصادية ، وغير ذلك من آثار ضارة •

أفكار تؤدى لتخلف العالم الاسلامى

يرى بيرتون أن سهولة الحصول على الغفران ، أى ربط المغفرة بكلمة أو عمل بسيط ، مما يساعد على انتشار الفساد ، ومن ذلك قول القائل (طوف واسع ، وأعمل السبعة) أى ما دمت تطوف حول الكعبة

وتسعى بين الصفا والمروة فلا خوف عليك حتى لو ارتكبت كل أنواع الفساد . لكن بيرتون ذا النظرة العالمية يعود فيقول ان ذلك يشبه ما يحدث لبعض المسيحيين بعد الاعتراف ، اذ يتأهبون لارتكاب معاصي جديدة وهناك من يفكرون فى المعاصي التى سيرتكبونها أيام الاثنين بينما هم منهمكون فى صلاة الأحد ، ويضرب كثيرا من الأمثلة الأخرى .

ويجزم بيرتون أن الاكراميات والبقشيش واعتقاد بعض الناس أن من حقهم الحصول على مال دون مقابل أو أنهم أهل لذلك ، دون عمل حقيقى ، من أهم أسباب تخلف العالم الاسلامى مؤخرا ، بينما نجد العمل والانتاج والايمان ، كل ذلك جميعا كان محور تقدم العالم الاسلامى فى عصوره الزاهرة - لا أرى أحدا يختلف مع هذا الأوربى المتنور .

ولا تخلو رحلة بيرتون بالاضافة لهذا من اشارات مفيدة فهو يعتقد على سبيل المثال أن عدم انخراط الدبلوماسيين البريطانيين فى أعمال تجارية ومصالح مع السلطات المحلية يجعل اسم بريطانيا نظيفا ويتيح الفرصة للدبلوماسيين البريطانيين للدفاع عن رعايا بريطانيا ورعاية مصالحها ، ويضرب أمثلة على ذلك .

لكن لكل جواد كبرة فقد أخطأ بيرتون فى تحديد الانحدار العام لهضبة شبه الجزيرة العربية ، فقال انه صوب الجنوب والحقيقة المؤكدة انه صوب الشمال وصوب الشرق .

وعلى الله قصد السبيل .

د . عبد الرحمن عبد الله الشيخ

الفصل السادس والعشرون

من السويرقية الى مكة (المكرمة)

وصف السويرقية - بنو حسين - وصف على بن يس (الزمزمى)
- معركة بين على بن يس وواحد من اهل المدينة - وليمة - جمال
عربى يقتل احد الأتراك - الدفن فى الطريق - السفانيا - مطير
(المطران) - الغدير - البركة - الزريبة - وادى ليمون - لصوص
عتبية - دور السلفيين (الوهابيين) فى قمعهم - الشريف زيد -
باشا العسكر يدخن الشيشة - نيران فى الطريق - البلمس المكي -
موكب عبد اللطيف بن غالب - درب المعلا - المعابدة - السليمانية
عداوة بين الأحياء - القلعة - تقدير المسافات - ملاحظات عن المياه
فى الحجاز •

لقد غادرنا الآن حدود المدينة (المنورة) السويرقية - التى تتبع
شريف مكة - وتقع على بعد حوالى اثنين وعشرين ميلا من الحجرية
Hijriyeh ، بحساب دقيق تكون - أى السويرقية - على بعد
تسعة وتسعين ميلا من قبر الرسول (عليه الصلاة والسلام) •
وموقعها (السويرقية) بالنسبة لآخر محطة توقف ٥١١ الى الشمال
الغربى • وهى تتكون من حوالى مائة منزل مبنية على القاعدة المسطحة
وعلى جوانب الكتل الصخرية البازلتية التى تنتأ فجأة من السهل الطفلى
الصلد • لقد تحولت القمة الى سهل متدرج - وبدون ذلك ما أمكن أن
تقوم فى الحجاز مستقرات - وتكونت متاريس من أحجار متكتلة غير
مقطعة وقد كونت - أى الأحجار - ما يشبه الحواجز والحصون •
والجزء الأدنى من البلدة يحويه سور طينى مزود بأبراج نصف دائرية
كما هو معتاد • وداخل البلدة سوق تتوافر فيها اللحوم (خاصة الضأن)
جلبها البدر المجارون ، ويزرع القمح والشعير والنخيل بالقرب من
البلدة ، وليس هناك الكثير مما يمكن وصفه داخل شوارعها الضيقة
وبيوتها الطينية ، أما الحقول المحيطة بالبلدة فمقسمة الى مساحات

صغيرة مربعة يفصل بينها أسوار حجرية أو حيود طينية ، وتبدو الآبار كثيرة ، وبعض النخيل ريانة بأسقة ، والمياه قريبة من السطح ومتوفرة وإن كان طعمها يميل للملوحة وتصبح غير مستساغة بعد شرب الإنسان منها لأيام قليلة .

وأهل البلدة من بنى حسين وهم من الشيعة ، وقد تحدثنا عنهم فى صفحات سابقة . ويزعمون ولاءهم للقبائل البدوية المحيطة خاصة قبيلة مطير Mutayr وهناك من أخبرنى أن ولاءهم للأمير مكة مجرد ولاء اسمى (شكلى) .

وقد شهد صباح يوم وصولنا للسويفية فوضى عمت مجموعتنا الصغيرة بعد أن كانوا قبل اليوم متماسكين متآزرين خوفاً من الطريق . فقد كان من بيننا شخص اسمه على بن يس وهو بحار قديم بكل معنى الكلمة (١) ومهنته زمزى Zemzemi أى جالب للمياه من بئر زمزم ويمتلك مأوى صغيراً عند سفح جبل « أبى قبيس » فى مكة ، ومع أنه تجاوز الستين ومقعد لا يكاد يقوم وضعضته السنون ففداً منحنياً أشيب اللحية متساقط الأسنان إلا أنه ما زال دليلاً للحجاج ويسافر مرة كل عام لهذا الغرض إلى المدينة (المنورة) ، وقد أكسبته رحلاته هذه مكر الرحالة المحنك . وقد عاش حياة طيبة وبتكلفة يسيرة ، فشجدوفه (شقدوفه) قد صنعه بنفسه وقد زوده بأثاث مريح : (مرتبة) ناعمة ووسادة وتتدلى من أخرجه أو أن حجرية وغير ذلك من أدوات الرفاهية فهو يصحب معه الشيشة التى يستخدمها أثناء السفر ، ويرتفع عن الاندماج مع الآخرين فى مواضع التوقف ، فيمكث فى خيمته ويعيقها بدخان شيشته وله وسائله الخاصة لتحويل ما لديه إلى مسكن . انه نموذج نمطى للعربى العجوز . وهو يغمغم دائماً طوال النهار وثلاثة أرباع الليل فهو يعانى من قلة النوم . وله أعصاب مرهفة للغاية فإذا اعتلى أحد شقدوفه كان سيىء الحظ إذ يتعرض لاهانة تجعله يجمد كتمثال . وهو قلق تماماً و متمسك « بالأصول » إلى حد مزعج ، معتز بنفسه ، مزدر للآخرين ، ولا شىء يزعجه أكثر من لحظة تأخير أو وجود شىء فى غير موضعه ، فليس على زمزميته (اناء شربه) أى خرق ، ويخلو وعاء طبخه تماماً من السناج ، وقد استنتجت حرصه الشديد (جشعه) من أنه يلتقط الحبات المتناثرة من الرمان الذى تأكله ، ويقوم بتناولها قائلًا انها حبات الجنة (وهو قول من ضمن الخرافات العربية) .

(١) يقصد أن اخلاقه كاخلاق البحار القديم ولايعنى أنه كان بحاراً .

ولم يكن على بن يس - وهو عائد الى بلده - سعيدا برفاق هذه الأيام فالشغل الآخر للشقدوف كان مصريا ذا وجه غير نبيل من المدينة (المنورة) ، وقد اختلفا لبرهة ولكن النزاع فشب بينهما فى السويرقية بسبب الخلاف على مبلغ تافه (عملات نحاسية) فأصبحا اعداء ، فقام على بس بدفع صديقه السابق خارج الشقدوف وأسمعه سبابا وتهديدات لا يستطيع - الا المصرى - أن يسمعها بهدوء ، لكن على بن يس رأى أن يعزز نفسه باتخاذ صديق خوفا من تحالف عدوه (صديقه السابق) مع سوريين أو ثلاثة ضمن مجموعتنا للحاق الأذى به . ولأنه كان قريبا لأسرة الولد محمد فقد تمكن من تقديم نفسه لى فقبل يدي بتذلل شديد وأعلن أن خادمه تصرف بشكل غير لائق وطلب حمايتي بأن يقوم عبدى بالتردد عليه بين الحين والآخر .

وقدمت هذه الخدمة اشفاقا على هذا العجوز الذى أبدى امتنانا عظيما . وقد عرض مرة أن يأخذ الشيخ نور فى شقدوفه . وكان الصيى الهندى قد خرب بالفعل قفص شبريته بالتمدد فيه بالطول بينما كان المسافرون المقدرون لعواقب الأمور يجلسون متربعين متجهين لرأس الجمل . وأكثر من هذا فقد اثار ضحك البدو الذين شاهدوه يوقف جملة للركوب عليه والنزول من فوقه ، وكانوا يسألون عن جنسه وأصروا على أنه « امرأة » من المايان Mayan (٢) . ولم أكن بمستطيع توبيخهم فجبين التابع البائس كان مضحكا بالمقارنة بأسنوب البدو فى ركوب الجمل : يسحبون رأس الجمل ، ويضعون القدم اليسرى على رقبته ، ويصعدون برشاقة وخفة ويزحفون الى السرج . وقد منى الشيخ نور نفسه - عندما رأى الرفاهية التى يتحلى بها موضع نوم العجوز على - بقضاء ساعات مبهجة مريحة ، لكنه فى صباح اليوم التالى وجد أنه قد دفع ثمنا غاليا مقابل هذه الرفاهية ، فلسان على يس لم يكف عن الغممة طوال الليل .

وخلال فترة توقفنا الوسطى فى السويرقية قررنا عمل وليمة صغيرة فاشترينا بعض الرطب الطازج كما اشترينا خروفا بدولار ونصف الدولار . وقد اعتبر المسافرون الجوعى أن الكبد والحواشى يجب أن تكون من نصيب شيخ (رجل كبير السن) ، وعلى أية حال فقد أفسد علينا الماء متعتنا فى هذه الوليمة فحتى غداء سوير Soyer's dinner قلما يكون بهيجا اذا تم استخدام اكواب قليلة من بعض يتابع المياه المعدنية فى ابسوم Epsom .

(٢) الكلمة بالهندوستانية تعنى سيد لكن البدو يطلقونها ويقصدون بها الهنود .
انظر الفصل ١٢ - (بيرتون) .

لقد بدأنا مسيرنا فى الساعة العاشرة صباحا (يوم الأحد ، الخامس من سبتمبر) فى الاتجاه الجنوبى الشرقى ، وكان مسيرنا على أرض مسطحة يتناثر فيها قليل من نباتات الصحراء . وفى الساعة الواحدة ظهرا مررنا بحيد بازلتى . ثم دخلنا فى منخفض ظللنا سائرين فيه خمس ساعات مملة . وكانت رياح السموم - كالمعتاد - تهب بقسوة وراحت تؤثر فى أمزجة المسافرين . وفى أحد الأماكن رأيت تركيا لا يستطيع النطق بكلمة عربية واحدة يتجادل بعنف مع عربى لا يستطيع أن يفهم كلمة تركية واحدة . والحاج يصر على تحميل الجمل - بالإضافة لحمله - بضعة أعواد من الحطب لاستخدامهما كوقود للطبخ ، ويقوم الجمال بقنصها تخلصا من الحمل الزائد ، فيتعاركان (الحاج والجمال) بعنف ويدفع أحدهما الآخر وأخيرا وجه التركى لطمة قوية للعربى . وقد سمعت بعد ذلك أن الحاج قد جرح جرحا مميتا فى تلك الليلة فقد شق بطنه بخنجر . ولما سألت عن مصيره علمت أنه كفن بارتياح كامل ودفن فى قبر لم يحفر جيدا . وهو ما يحدث - بشكل عام - للبؤساء والذين يسافرون فرادى - والذين يحول المرض والحوادث الطارئة بينهم وبين الاستمرار فى السفر . ومن المحال أن يفكر المرء فى هذا المصير دون أن يعتريه الرعب : فعصف الريح والعطش ، والشمس المحرقة تقدح الرأس حتى الجنون ، والأسوأ من كل هذا فانهم لا ينتظرون الشخص حتى يموت ، وسرعان ما تهاجمه ثعالب البرية ونسورها وغريانها .

وفى الساعة السادسة ليلا - وقبل أن يتلاشى نور النهار - انتقلنا الى حيد قاس ومزعج . لقد هبطنا فى طريق يتخذ اتجاهها جنوبيا تحفه من ناحية الشمال تلال منخفضة من صخور رملية حمراء ورخام سماقى لامع ، وبعد ذلك بحوالى ساعة وصلنا لمساحة من البازلت شققنا طريقنا عبر صخورها ببطء وارهاق ، وفى الساعة الثامنة مساء بدأت الجمال تتعثر فى الممرات الضيقة التى تفصل بين حقول القمح والشعير ، وسرعان ما وصلنا لمكان توقفنا وهو قرية كبيرة تسمى السفاينا Al-Sufayna (٣) فامتلا السهل بالخيام والنيران التى أشعلها المسافرون ، وقد وجدنا قافلة حجاج بغداد التى تتخذ طريقها فيما يسمى الدرب الشرقى . وتتكون قافلة حجاج بغداد من عدد قليل من الفرس والأكراد وخليط من قاطنى الشمال الشرقى

(٣) لم تحظ دراسة التشابه أو التماثل بين أسماء المدن والقرى فى مختلف بقاع العالم العربى بالاهتمام الكافى ، فهناك مثلا قرية بالاسم نفسه فى مصر بمحافظة القليوبية مركز طوخ - (المترجم) .

لشبه الجزيرة العربية بالاضافة للسلفيين (الوهابيين) وغيرهم ، وكان يرافق هذه القافلة قبيلة عقيل وجبليو جبل شمر الشرسون . وماكدنا ننصب خيمتنا حتى سمعنا صوت اطلاق الأسلحة النارية الصغيرة فتشبت رفاقى فى كل اتجاه لمعرفة سبب المعركة . لقد كانت قافلة بغداد - رغم أن عددها لا يزيد عن ألفين بما فيهم النساء والأطفال - قد سبقت قافلة دمشق فى اختيار الموقع الأفضل وكانت قافلة دمشق على استعداد للاقتتال ، ولم تتنازل قافلة بغداد عن أى جزء من حقها فى السبق . ومنذ ذلك الوقت عسكرت كلتا القافلتين فى مكانين مختلفين ، ولم أر أبدا من هم أكثر حبا للمشاكسة والعراك من أفراد هاتين القافلتين ، فمجرد نظرة كان كافيا لقيام معركة . وذات مرة جلس واحد من السلفيين (الوهابيين) فى مواجهتنا ، وأظهر كراهيته للشيبوك الذى ندخنه ، بإشارة من اصبعه وإيماءات وإشارات أخرى تدل على الازدراء والاحتقار ، وكان من المحال أن أمسك نفسى عن عقابه وكف غطرسته بأن أقدم له - بأدب - الشيبوك مشفوعا بابتسامة، فقد سحب خنجره دون تفكير ، لكنه سرعان ما أغمده لأننا وضعنا أيدينا على زنود (جمع زند) مسدساتنا ، فلا يقل الحديد الا الحديد . وقد سافرنا حوالى سبعة عشر ميلا ، وكان اتجاه السفاينا من آخر موضع توقفنا فيه هو الى الجنوب الشرقى بخمس درجات ، ورغم أننا توقفنا فى الليل الا أن الشيخ مسعودا أعلن عن حاجة جماله المرهقة للشرب لأنها لم تطفئ ظمأها منذ ثلاثة أيام ، وقد عاد محبطا فقد منعه الجنود من الحصول على الماء الا اذا دفع أربعين قرشا (حوالى ثمانية شلنات) .

وبعد العشاء فرشنا أبسطتنا وتهيأنا للراحة ، وقد لاحظت هنا - للمرة الأولى - برودة الليل ، وحدث هذا فى هذا الموسم من العام يدل على ارتفاع ملحوظ عن سطح البحر . والجو يركد - كقاعدة عامة فى الفترة من شروق الشمس الى العاشرة صباحا حيث تهب رياح خفيفة ، وقبل الظهر يشتد النسيم ، ويخف تدريجيا حتى بعد الظهر . وغالبا ما تهب عاصفة ترابية عند غروب الشمس تقريبا . وفى السفاينا لا بد من التدثر بدثار رغم عدم وجود نسائم باردة أو ندى ، فساعات الليل تبعث على النشاط وتزيل آثار الرمال ورياح السموم التى عانينا منها فى النهار . وقبل النوم تعرفت بشخص له نفس اسمى وهو الشيخ عبد الله من مكة ، وكان الشيخ عبد الله هذا قد ترك شقدوفه لابنه وهو صبى فى الرابعة عشرة وركب هو فى المقدمة على الجمل فمرض فجأة فقصد للتعرف بى للحصول على بعض الدواء وليهيئ لنفسه مكانا مريحا فى شقدوفى وقد سمحت له بذلك بسرور

لأن الولد محمد كان باستمرار يركب الجمل ، أما عن مرضه فلم يكن سوى إرهاق بسبب وعثاء السفر ، لقد مرض بفعل الرياح الحارة ، وثقل أكياس الدولارات التي يلفها حول وسطه . لقد كان فى حوالى الأربعين طويلا نحيلًا شاحبًا ذا مزاج عصبي تماما ، وقد استنتجت من خلال الأسئلة أنه لم يتناول حبة الأفيون اليومية وأنه انقطع عن تناولها فجأة ومنذ وقت قريب ، فقامت بتجهيز حبة له وتركته مستريحًا فى شقدوفى وحثته على التخلص من حملته (حزام الدولارات حول وسطه) فى مكان آخر حتى يستريح . ولقد ظل صديقًا لى طوال مرحلتين وأخيرًا استقر فى شقدوفه . ولم أر بين أهل المدن من هو أفضل معلومات وأحسن تجربة منه ، فقد تعلم فى استانبول قليلا من الفرنسية والإيطالية واليونانية ولديه معلومات مختلفة ابتداء من المشروبات حتى أنواع عسل النحل . انه مخزن للمعلومات المفيدة كما أنه منفتح لا يخفى معلوماته كأنه قاموس . ولقد افترقنا قرب مكة (المكرمة) ولم أقابله بعد ذلك الا مرة واحدة فى وادى منى (بكسر الميم) Muna .

وفى الساعة الخامسة والنصف من يوم الثلاثاء الموافق للسادس من سبتمبر نهضنا وقد أنعشنا البرودة والراحة التى تمتعنا بها ليلا وحملنا جمالنا . وأتيح لى فرصة لتفقد السفانیا . انها قرية من خمسين أو ستين منزلا شيدت جدرانها من الطين ، وأسقفها مسطحة ، حولها سور معتاد وخارجه توجد النخيل وحقول القمح والشعير والذرة ، وكانت سوقها فى هذا الموسم عامرة ، فحتى الدواجن كانت متوفرة فيها .

وقد اتخذنا مسيرنا فى الاتجاه الجنوبى الشرقى ودخلنا منطقة خالية من سلاسل التلال المنخفضة التى تحد الأفق من المدينة المنورة وتتابع مسيرها صوب الجنوب . وبعد ميلين من المسير صعدت جمالنا منحدرًا شديدًا ثم هبطت فى سهل عريض مكسو بالحصى . وكان طريقنا من الساعة العاشرة الى الحادية عشرة صباحًا يتخذ اتجاهًا جنوبيا على سطح مرتفع ، وبعد ذلك عبرنا لمدة خمس ساعات ونصف الساعة سهلا تشير الدلائل لوجود ماء به . وكان لمسيرنا فى هذا النهار خصوصية تجعله نمطا للمسافر فى شبه الجزيرة العربية . فقد كانت المنطقة التى نجتازها خالية الا من الصدى - منطقة الموت ، فكل شيء هنا يموت - انها البرية حيث لا شيء الا هو (سبحانه وتعالى) وفقا لتعبير رفيق سفرى . فالطبيعة هنا قد تعرت وكشفت عن هيكلها العظمى للرائى ، فالأفق بحر سراب وأعمدة رمال عملاقة تدور فوق السهل وعلى

جانبي طريقنا أكوام هائلة من صخور جرد تقف بمعزل عن بعضها فوق سطح الرمال أو الطفل . وتظهر هنا في أكوام تتخذ شكلا بيضاويا وتتكوم فيما يشبه التناسق وهناك يرى المرء جلودا (حجرا كرويا) قائما وحده على قاعدة صخرية منخفضة تتخذ شكل القبة ، وكانت جميعها من جرانيت قرنفلى محبب تأثرت بفعل عوامل المناخ فأحاطت بها قشور سميكة ، وقد لاحظت صخرة لا يقل ارتفاعها عن ثلاثين قدما . لقد كنا نسافر بين هذه الصخور وتلك المناظر حتى حوالى الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر ، حين سمعنا فجأة طلقات البنادق مؤذنة بالتوقف ، ولم يكن ثمة أثر لحياة بشرية حولنا خلا شجيرات قليلة يابسة وأكوام الجرانيت ، وقد استنتج مسعود استنتاجا صحيحا سبب توقفنا فى هذا المكان غير الأهل التابع لقبيلة مطير Mutayr فقال الشيخ العجوز : « أعد خبزك واصنع قهوتك فستستريح الجمال لفترة ولن تنطلق بنادق الرحيل الا عند حلول الليل » .

لقد قطعنا حوالى ثمانية عشر ميلا ، واتجاهنا الحالى هو الى الجنوب الغربى بعشرين درجة من السفاينا .

وفى العاشرة والنصف من مساء ذلك اليوم سمعنا اشارة الرحيل، وكان القمر مازال شابا فأعدنا أنفسنا لسفر ليلى شاق .

فاتخذنا اتجاها جنوبيا غربيا خلال ما يسمى بالوعر Waar thicket وهو ما يطلقه العرب على الأرض الخشنة الجرداء التى تغطيها الآجام . وهبطت الظلمة فوقنا كغطاء النعش أو طيلسان القس ، وتعثرت الجمال وارتيكت وتقاذفت الشقادييف كسفن فى بحر عاصف ، ولما وصلنا الى حيد أكثر وعورة من المألوف أمسك مسعود رسن جملى وحمل هو وابنه وابن أخيه المشاعل وراحوا يحثون الجمال بالايماء وبالكلمات على المسير . لقد كان منظرا غريبا . لقد كانت المساحات البازلتية السوداء تتناثر فيها أشكال ضخمة غامضة للجمال نوات الأخفاف العريضة اللينة تمشى الهوينى صامته ، تبدو كالأشباح فى منتصف الليل ، والرياح الساخنة تعوى وتجعل أطراف نيران المشاعل وما يتصاعد منها من دخان كأنها دوامة ، ويحيط بالتختروانات المريحة Takht-rowan التى تجررها البغال - أشخاص يجرون حاملين المشاعل الضخام التى تلقى قبسا من ضوء أحمر على الطريق المعتم وعلى الجموع التى غلفها سواد الليل . وفى مثل هذه الظروف يكون شعار كل انسان (ليتحمل كل شخص مسئولية نفسه) فكل مسافر يعمل على شغل أفضل جزء من الممر ولا يفكر الا فى أن يسبق جاره ،

وقد أثبت السوريون الذين كانت مجموعتي الصغيرة تسافر بينهم أنهم مريبون ، وأنهم أسوأ رفاق سفر ، فغالبا ما كانوا يعطلون الطريق ويعملون دوما على تحقيق الأسبقية ، وفي إحدى المناسبات تجرأ سوري على فك رسن جملى ليقذف بنا بعيدا - كل ذلك بقصد أن يخلى مكانا لبعض أصدقائه ، وقد أمسكت بسيفي لكن الشيخ عبد الله كبج يدى وعنف هذا المتطفل بطريقة شديدة جعلته ينسل خفية ، ولم تكن هذه هى المرة الوحيدة التى نجح فيها صديقى فى إيقاف السوريين عند حدهم ، فهو يبدأ معهم بعنف قائلا : « حرك ! ابعد قليلا يا بوى (يا أبى) » فإذا كان هذا القول غير كاف أتبعه بقوله : « وسع الطريق يا أبو الشام » فإذا لم تؤت نتيجة بدورها قال : « ابعد ٠٠ يا هذا » (*) فان لم تفلح هذه الكلمات التى تتخذ موقعا وسطا بين العنف والرقعة راح يسب « خونة الملح » وأتباع « يزيد » وسلالة شمر Shimr (٤) .

(★) بالعامية : « رح ٠٠ رح ٠٠ يا هو » - (المترجم)

(٤) « أبو الشام ، مصطلح شائع فى الحجاز للدلالة على السوريين ، أما قولهم « يا خونة الملح » ويا سلالة شمر (إشارة لمقتل الامام الحسين) والشيعية - خاصة الفرس - يعقنون الشوام (السوريين) مقتا شديدا فلم أقابل شيعيا متدينا الا ووجدته يود إبادة السوريين إبادة كاملة باعتبارهم جنسا مدنسا ٠٠٠ لكن جلال الدين فى كتابه عن تاريخ القدس يذكر أن كل العلماء يوافقون على أن دمشق أهم المدن بعد مكة والمدينة ويطلق عليها - أى دمشق - أسماء منها « ابتسامة النبى » و « البوابة الكبرى للحج » و « وشام شريف » و « الذراع اليمنى لمدن سوريا » ٠٠٠ الخ وينسبون للرسول (صلى الله عليه وسلم) أحاديث كثيرة فى فضل سوريا ، ويقولون انه - أى الرسول - كان يستخدم كلمات سورية مثل « بخ ٠٠ بخ ٠٠ » لعلى بن أبى طالب وقوله كخ ٠٠ كخ ٠٠ للحسين ٠٠ لكن كلمة « كخ » (بكسر الكاف وتشديد الخاء) منتشرة فى مصر وانتقلت الى الميثولوجيا اللاتينية ومنها الى اللغات الأوربية الحديثة : الفرنسية والانجليزية والألمانية والإيطالية وغيرها .

(موجز تعليق بيرتون)

وعند انتقال الجمل الى موضع خطر فان الشيخ عبد الله الأوروبي (٥) • يصيح فى جملة : « هاى ٠٠ هاى » (٦) ، أما الشيخ عبد الله الآسيوى فيناجى ربه هاتفا « يا ساتر (٧) ٠٠ يا ستار » •

وطلع صباح الأربعاء السابع من سبتمبر ونحن ندخل سهلا عريضا • وفى أماكن كثيرة ظهرت علامات تدل على المياه ، فخطوط البازلت هنا وهناك تبدو على السطح ، وقطع أحجار الجص المسامية التى يسميها العرب سبخة Sabkhah تبدو كالمرايا وسط مسطحات خميرية (سمراء محمرة أو مصفرة) • لقد وجدت هذه المواد القشور متراصة ، يبلغ طول الواحدة منها قدما ، ويبلغ عمقها بوصة ، جعلتها أشعة الشمس فوق طين تشرب المياه • وبعد ليل مزعج أقبل الصباح بشعور حزين وضيق زادهما زيادة الوهج بشكل غير طبيعى فأصبح التحقق من المناظر عبثا والعزيمة هامة وهبت الريح الحارة فكان احساسنا بالآلم حادا •

وقد خاب أملنا فى توقفنا لوجود الماء الذى عادة ما يكون متوفرا حول محطة الغدير هذه Ghadir التى يوحى اسمها بوفرة المياه • وفى الساعة العاشرة صباحا نصبنا خيامنا فى أول بقعة ملائمة ولم نضع وقتا فمددنا أطرافنا المرهقة على صدر أمنا الأرض • لقد استغرق المسير من محطة مطير Mutayr الى الغدير حوالى عشرين ميلا فى اتجاه الجنوب الغربى بواحد وعشرين درجة • ومحطة الغدير تمثل سهلا متسعا يمكن أن يعطى شكل البحيرة بعد هطول مطر كثيف ، وتنمو فى بعض أجزائه نباتات صحراوية وكو تم امداده بالماء بشكل منتظم لأمكن زراعته ليكون مفيدا للإنسان • ومن ناحية الشرق تحده تلال صخرية يوجد عند قواعدهما ثلاث آبار قيل ان هارون الرشيد هو الذى أمر بحفرها • وثمة برج - اعتراه الخراب - قد أقيم لحراسة

(٥) يقصد نفسه - (المترجم) •

(٦) ثمة لغة خاصة لمخاطبة الجمال ، فكلمات : « اخ ٠٠ اخ Ikh تجعله بيرك ، و « يه ٠٠ يه - بفتح الياء بمفخمة وتسكين الهاء » لحنه على المسير أو القيام » أما « هاى ٠٠ هاى - بكسر الهاء وإمالة الألف بين الكسر والفتح » فلتحذيره ٠٠ الخ •

(بيرتون) •

لاحظ المترجم أن العبارة الأخيرة « هاى ٠٠ هاى » تستخدم أيضا لتحذير البشر •

(المترجم) •

(٧) تستخدم أيضا اذا كشف وجه المرأة صدفة - (بيرتون) •

هذه الآبار ، ولقلقنا أثناء فترة الراحة ، شردنا عن القافلة الدمشقية (قافلة الحج الشامي) لنصبح بين رجال شمر Shammar الجبليين . وكان من الواضح أن الشيخ مسعود لم يكن يحب الصحبة ، فقد أصر بعد الساعة الثالثة بعد الظهر أن نجمع خيامنا لننضم لرفاقنا القدامى ، وكانت قافلة الحج الشامي تعسكر على بعد ميلين في الجانب الغربى من الحوض (سهل الغدير) ، وعلى هذا فقد حملنا الجمال وقبل غروب الشمس بنصف ساعة وجدنا أنفسنا بين مجتمع أكثر أنفة . ولخيبة أملى فقد كان الاضطراب ملحوظا في القافلة . فقد فهمت في إحدى المناسبات أن القدر يدخر لنا مشيرا ليليا آخر .

وفى الساعة السادسة مساء ركبنا دوابنا مرة أخرى واستدردنا الى السهل الشرقى . لقد كان وابل من البرد يسقط على التلال الغربية بينما تهب عصفات ريح كثيفة وخطرة ، وبين الساعة التاسعة مساء وحتى فجر اليوم التالى لم تكن المناظر على الطريق الخطر الوعر تختلف عن مناظر الليلة الماضية ، لذا فقد عجبت من أولئك الذين يفضلون السفر ليلا . وكانت جمال القافلة الدمشقية قد أصبحت الآن - تكاد تخر من الارهاق فقد أنهكتها الشمس . لقد قضيت ليلتى جاثما عند العمود الامامى لشقدوفى ، أحت الجمل على المسير ومما يثير غاية دهشتى أننا لم نسقط (بسبب التعثر) مرة واحدة ، وفى الساعة الخامسة صباح الخميس الموافق للثامن من سبتمبر دخلنا سهلا عريضا يعج بالشجيرات الشوكية التى نزعت أشواكها كثيرا من أغطية الشقاديغ ، وانسحب عدد ليس بالقليل ليسقط على الأرض مما أثار ضحكا ساخرا ، وبعد ذلك بحوالى خمس ساعات عبرنا حيدا (حافة) مرتفعا ورأينا أسفل منا معسكر القافلة وكان لا يبعد عنا أكثر من ميلين . وكان الولد محمد مرهقا حقا من ركوب الجمل مع صديقه وربما كان جائعا وقد أسرع ليخبر رفيقى عبد الله أنه سيذهب به الى شقدوفه (أى شقدوف عبد الله) والى ابنه ، ولكن الشيخ عبد الله استقبل الولد محمد استقبالا فظا فقد مضى يومان دون أن يكلف أحد من الأصدقاء أو المعارف نفسه عناء السؤال عنه ، لكن الولد محمد أقسم أنه وكل المجموعة حاولوا البحث عنا دون جدوى .

وفى الساعة الحادية عشرة صباحا كنا قد وصلنا لمحطتنا ، وكانت تبعد عن الغدير زهاء أربعة وعشرين ميلا فى اتجاه الجنوب الشرقى بعشر درجات ، وتسمى البركة (٨) (يكسر الباء) نسبة الى حوض

(٨) كلمة (بركة) فى الحجاز قد تعنى خزاناً صناعياً أو بحيرة طبيعية صغيرة يعدونها أصغر من الغدير ٠٠ الخ - (عن بيرتون) .

(خزان ماء) كبير - أضحي الآن مهدما - من حجر بناه هارون الرشيد . وهذه الأرض هي مضارب قبيلة عتيبة أشجع القبائل الحجازية وأكثرها شراسة ، ويشير أهل المدن الى رهبتهم من هؤلاء اللصوص قطاع الطرق مؤكدين أنهم يشربون من دماء أعدائهم بقصد زيادة قدرتهم على المواجهة أو رفع مستوى شجاعتهم (٩) . وقد هز رفاقي رءوسهم عندما سألتهم عن الموضوع ودعوا الله ألا نحتك بهم ، فالحديث عنهم نذير شؤم .

وقد سمح لنا الباشا أن نمكث في البركة (بكسر الباء) خمس ساعات ، قضيناها في خيمتي التي ازدهمت بأصدقاء الشيخ عبد الله . ولكي يعوضني عن هذا الازعاج الذي سببه لي ، قدم لي شيشة ممتازة ، وفنجان قهوة فاخرا لم يفسده بالقرنفل أو إضافة القرقة له ، طبقا من الفواكه المجففة . ولما كنا قد أصبحنا الآن على مقربة من مكة المكرمة فقد انشغل أهل مكة الذين برفقتنا بالحديث عن الاسكان والاقامة وراحوا يعرضون خدماتهم على الحجاج ، وكان يدور شجار - أيضا - كل ساعة . وكان في جماعتنا شخص ألباني Arnaut عجوز أشيب اللحية لا يستطيع أن يقوم من مقامه الا بجهد جهيد ومع هذا فانه عنيف لا يستطيع أحد التعامل معه الا عبده الأفريقي البائس وهو صبي صغير وقع في الرابعة عشرة من مره ، وقد حدث تراشق بالكلمات بين هذا السيد العجوز الغاضب والشيخ مسعود عندما ألمح الشيخ مسعود الى أن هذا الألباني لو كانت له أسنان لكان أكثر اتزاناً ، فقام الألباني برفع عمود ووجه ضربة أخطأت الجمال (الشيخ مسعود) وانطرح المضارب (الألباني) أرضاً . واندحش مسعود صارخاً . « أوصل بنا الحال ليهزأ بنا هذا (المرأة العجوز) . هذا التركي ؟ » وبذلت جماعتنا غاية جهدها لتتهمة المتعاريكين . وقد سمعنا العرب ونحن نهده بالباشا ، ولكن الألباني الذي بلغ به الغضب كل مبلغ وأصبح كالحديد المحمي لم يبال بتهديداتنا الا عندما قلنا له انه اذا لم يتصرف كحاج فأننا سوف نتركه هو وعبده وراءنا ونرحل .

(٩) يعتقد البعض أنهم يشربون دماء أعدائهم فعلاً وليس مجرد تشبيه أو صيغة بلاغية ، ويعتقد آخرون عكس ذلك ويقال أن أفراد قبيلة مطير (المطران) وأفراد قبيلة عتيبة (العتيبان) غير مسموح لهم بدخول مكة (المكرمة) حتى أثناء موسم الحج . (موجز عن بيرتون) .

ونكاد نجزم أن في هذا القول بعض المبالغة ، وأن بيرتون قد سمع ذلك من بعض من يكرهون القبيلتين ، ولم نسمع - أبداً - أن قبيلة منعت من الحج لنوعها أو جنسها وإنما يكون المنع لجماعات اللصوص - (المترجم) .

وفى الساعة الرابعة عصرا غادرنا البركة وسرنا فى اتجاه الشرق
فى أرض ذات أحراج كثيفة حيث كانت هناك شبكة من الممرات الضيقة
للمشاة بين الآجام ، وحجبت السحب القمر ، فكان لابد أن نضل
الطريق ، وفى حوالى الساعة الثانية صباحا بدأنا نصعد التلال فى
اتجاه جنوبى غربى وسرعان ما هبطنا فى بطن مسيل تحفه صخور
ضخام يجرى من الشرق الى الغرب ، وغطت المسيل نباتات الأثل
(من نوع الطرفاء اللاورقية) (١٠) وتنتشر نباتات الكولوكويندتيا
Coloquindito (١١) كما تنتشر أشجار السنبا (١٢) ذات الأوراق
الصغيرة الخضراء ، وأشجار Rhazya Stricta (١٣) وأنواع
مختلفة من أشجار الصقلاب (بضم القاف) (١٤) غطاها الضباب
والندى . وفى الساعة السادسة صباحا (التاسع من سبتمبر)
غادرنا المسيل واتخذنا اتجاها غربيا حيث وصلنا فى غضون حوالى
نصف ساعة الى محطة توقعنا أنها المزربية Al-zaribah (١٥) وهى
سهل متموج فوق تلال جرانيتية مرتفعة ، وفى كثير من أنحاء خضرة
واهمة ، والمياه قريبة من السطح ، وتحفظ الأرض بمياه الأمطار فوقها .
وكنا قد قطعنا خلال الليل حوالى ثلاثة وعشرين ميلا ، وتقع محطاتنا
الحالية (المزربية) الى الجنوب الشرقى بست وخمسين درجة من آخر
محطة كنا فيها . وبعد أن نصبنا خيامنا وأكلنا ونمنا بدأنا نستعد
لارتداء ملابس الاحرام ، فالمزربية هى الميقات . وبين صلاتى الظهر
والعصر أحضرنا الحلاق لحلق رؤوسنا وقص أظافرنا وتسوية شواربنا ،
ثم استحمننا وتطيننا - وأن كان التطيب مسألة فيها خلاف ، ولبسنا
ملابس الاحرام وهى لا تتعدى قطعتين من قماش قطنى جديد ، طول
الواحدة منهما ستة أقدام وعرضها ثلاثة أقدام ونصف قدم ، وهى

(١٠) عن معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية - (المترجم) .

(١١) لم نجد لها مقابلا عربيا فى المعاجم النباتية والزراعية التى بين أيدينا -

(المترجم) .

ويعلق بيرتون أنها تستخدم فى الشرق استخداما طبيا بملء قشرتها بالحليب
وتعريضها للهواء الليل ، وشرب ما بها صباحا - (بيرتون) .

(١٢) نبات من الفصيلة القرنية يتخذون من أوراقه الجافة دواء مسهلا .

(عن معجم الشهابى) - (المترجم) .

(١٣) لم نستطع الوصول لمقابلها العربى - (المترجم) .

(١٤) Asclepias نسبة الى اله الطب عند اليونان وهو على أنواع : صقلاب
معقوص ، وصقلاب سورى (ويسمى شجر الحرير) وصقلاب فورسكال ويعنى فى اليمن
غشوة (بفتح الغين) وصقلاب سيناء الخ .

(عن معجم الشهابى - (المترجم) .

بيضاء لها حواف حمراء ضيقة وشراريب ، وفى حمامات القاهرة يستخدم المستحمون أقمشة من النوع نفسه ويسمونها « العدة - بكسر العين El Eddeh » ، وأحدى هاتين القطعتين يطلق عليها اسم الرداء Rida . ويطرح على الظهر مع كشف الذراع والكتف ، ويعقد عند الجنب الأيمن كأنه وشاح ، أما الأزار فيلف حول الخصر ومنطقة السرة الى الركبة ، ويعقد من الوسط (عند منطقة السرة) ، وكانت رءوسنا عارية ولا يجوز تغطية سطح القدم من أعلى . ويقال ان بعض العشائر العربية لا تزال تحتفظ بهذه العادة الدينية فى اللباس مع أنها غير مريحة ، ولا شك أن هذا الزى يعود لأزمنة سحيقة ، وقد استمر الناس فى استخدام هذا الزى حتى الآن فى المناطق الواقعة غرب البحر الأحمر .

وبعد الاستحمام والوضوء والاحرام وجهنا وجوهنا شطر مكة وصلينا ركعتين وقلنا : « نويت الحج والعمرة فقدرنى يا الله على اتمامهما ، وتقبلهما منى وامنحنى ثوابهما » ثم شرعنا فى التلبية :

« لبيك اللهم لبيك

لبيك لا شريك لك لبيك

ان الحمد والنعمة لك والملك

لا شريك لك لبيك » .

وطلب منا أن نظل مرددين لكلمات التلبية كلما أمكننا ذلك حتى انتهاء المشاعر . ونبهنا الشيخ عبد الله - مرشدنا فى الحج - أنه لا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ، وأن نحترم كل مظاهر الحياة فلا نقتل طيرا ولا نزعجه ، ولا نؤذى حيوانا ولا نقتله ، ولا نحك أنفسنا الا أكفنا ، ولا ننزع من أبداننا شعرا ، ولا نقطع شجرا ، ولا نقطف عشباً ، ولا نستخدم عطرا أو دهانا أو مرهما ، ولا نغسل رءوسنا بالخباز Mallow أو أوراق أشجار الـ Lote ، ولا نصبغ أو نحلق أو ننزع شعرا حتى ولو كانت شعرة واحدة ، ويتاح لنا الاستمتاع بالظل بل ورفع أيدينا فوق رءوسنا جلبا له (أى للظل) ، الا أنه من المحظور تماما تغطية جماجمنا . وأى خرق أو تجاوز لمواحد من هذه المحظورات يلزم الحاج بتقديم أضحية بمعنى ذبح خروف ، ومن المعروف بشكل عام أن أحدا لا يستطيع تنفيذ كل الشعائر بدقة كاملة دون تجاوز ولو كان طفيفا الا النبى (صلى الله عليه وسلم) . وقد بدأ على العجوز بداية يعوزها الانضباط فقد أعلن أن سنه تمنعه من لبس ملابس الاحرام ولكنه سيقدم قربانا (أضحية) عند وصوله لمكة (المكرمة) .

وقد أحرمت زوجة الحاج التركي الذى كان معنا وكذلك بناته
 قلبسن عباءات بيض وكن قد استبدلن بالثلثام - وهو قطعة قماش جميلة
 من الموسلين (القماش الموصلى) - حجابا على هيئة قفص من جريد
 النخيل وسعفه به ثقبان لاتاحة الرؤية للعينين ، ولم أستطع مغالبة
 الضحك عند رؤيتهن بهذا الحجاب (الغريب) وعرفت من هزهن لأكتافهن
 أنهن لم يكن أقل منا مرحا لارتدائهن هذا الحجاب الغريب (١٦) .

وفى الساعة الثالثة عصرا غادرنا الزريبة واتخذنا اتجاهها
 جنوبيا غربيا فقابلت عينا المرء مناظر جديدة بالتصوير ، فالجموع
 تهول مسرعة فى ملابس الاحرام البيضاء والتي يتناقض بياضها
 بشكل حاد مع جلودهم السمراء ، ورءوسهم الحليقة مؤخرا تلمع فى
 الشمس بعد أن ذهبت شعورهم السوداء الطويلة مع الريح (١٧) .
 وكانت تلييتهم : « لبيك . لبيك » تدوى بين الصخور ، وفى أحد الممرات
 التقينا صدفة بالسلفيين (الوهابيين) المصاحبين لقافلة بغداد ، وكانوا
 يهتفون بالتلبية ويسيروا فى طابورين على قرعات طبلية (نقارية)
 كبيرة ، ويحمل جمل المقدمة علما أخضر عليه شعار الاسلام
 (لا اله الا الله محمد رسول الله) . لقد كانوا جبليين غلاظا ضفروا
 شعورهم فى ضفائر نحيلة thin Dalik ويتسلح كل واحد
 منهم برمح طويل وبندقية قديمة الطراز (البندقية ذات الفتيل) أو خنجر ،
 وكانوا يقعدون فوق سروج خشبية خشنة ليس عليها مراتب أو وسادات
 عدا زعيمهم الذى تميز جملة بسرج (جل - بضم الجيم) جميل .
 وحذت النساء حذو الرجال فكن اما يقدن جمالهن أو يجلس فوق سروج
 خفيفة وكن متعلقات بأزواجهن ويترفعن عن الحجاب ، ولم تكن مناظرهن
 بالتأكيد تمت بصلة لناظر الجنس اللطيف (الناعم) . وهؤلاء السلفيون
 (الوهابيون) هم بلا شك رفاق سفر مريحون ، فمعظمهم كان يتبعه
 جمل احتياطي اما غير محمل ، واما يحمل قرب الماء والعلف والوقود
 وغير ذلك من ضروريات السفر . وقد أندفعوا بهياج وسط طابورنا الذى

(١٦) سبب هذا الحجاب المصنوع من سعف النخيل وجريده أن المرأة يجب ألا
 تغطى وجهها عند الاحرام وأداء مناسك الحج ، بمعنى أنه لا يجب أن يمس شيء من الملابس
 وجهها - (بيرتون) .

(١٧) نص عبارة بيرتون :

Their newly shaven heads glistening in the sun, and their long black
 hair :treaming in the wind.

والترجمة الدقيقة هى : ورؤوسهم التى حلقت مؤخرا تتلألا (أو تلمع) تحت أشعة
 الشمس ، وشعورهم الطويلة السوداء تسبح مع الريح أو تتطاير فى الهواء . وما ذكرناه
 فى المتن هو المعنى المقصود غالبا - (المترجم) .

كان يمشى منتظما كل رأس جمل عند ذيل الجمل الذى أمامه ، وقد تسبب اندفاعهم فى أحداث اضطراب فى طابورنا ، وإذا لاحظ السلفيون (الوهابيون) أحدا منا يدخن لعنوه بصوت عال قائلين انه كافر ووثنى .

ولما نظرت الى الزربية خلفنا بعد مغادرتها مباشرة ، رأيت سحابة كثيفة فوق قمم التلال يتساقط منها المطر فوق السهل . وغنى الرعد مدمما فى آذاننا ، وتوقعنا أن نرى برقاً فخاب أملنا وهبت علينا رياح متربة انتهت بزخات مطر كثيفة لكنها لم تدم طويلا ، وأتتنا أنباء أن البدو هاجموا جماعة من أهل مكة بالأحجار وجعلتنا هذه الأنباء متجهمين .

وفى الساعة الخامسة بعد الظهر دخلنا بطن مسيل عريض كان علينا أن نظل مسافرين طول الليل أدنى منه ، والمنطقة هنا تنحدر بشدة نحو البحر كما تشير لذلك اتجاهات المجارى المائية وآثار السيول فى قاع المسيل ، الذى يتباين عرضه من مائة وخمسين قدما الى ثلاثة أرباع الميل ، ويتخذ اتجاهها - كما قيل لى - جنوبيا غربيا ويصل الى البحر بالقرب من جدة ، ومجرى المسيل من رمل خشن تتناثر فيه الأحجار ومساحات من نباتات صحراوية غير كثيفة .

وفى حوالى الساعة الخامسة والنصف دخلنا منطقة ذات منظر غريب ، فمن أيامنا نتواءات حجرية يمتد عند قاعدتها (سفحها) دجرى يمتلىء ماء بعد المطر ، وكان طريقنا فى هذا المنخفض ، محفوفاً بالصخور من ناحية وبالأشجار الشوكية التى ملأت النصف الآخر من المجرى من ناحية أخرى . لقد كان الجانب الأيسر جرفا كالحا أجرد لكنه ليس حادا كما فى الجانب الأيمن ، وبدأ الطريق فى مواجهتنا وكأن التلال سدته فقنة تل تتلوها قنة (١٨) تل آخر وهكذا على مدى الأفق ، وكان النهار لا زال مبتسما فوق القمم العالية ، أما المنحدرات المنخفضة وبطن المسيل فقد بدأ ثوب الظلام يغطيها .

وبدت المكآبة تغلف أرواحنا كلما تقدمنا فى هذا الوادى الخطر . وقد لاحظنا أن أصوات النساء والأطفال تتلاشى فى بحار الصمت والسكون كما أن تلبية الحجاج (دعاء : لبيك الله لبيك) تمهد تدريجيا وبينما كنت منشغلا فى تأمل سبب هذه الظاهرة التى تجلت واضحة ، لاحظت لفائف دخان صغيرة كأنها خواتم النساء (حلقات صغيرة)

(١٨) قنة بضم القاف وتشديد النون - (المترجم) .

تتصاعد على قمة الجرف ، الواقع تجاه أيامنا ، تزامن ظهورها مع
صدى اطلاق رصاص من بندقية قديمة الطراز (ذات فتيل) ، وتدحرج
الجمال الذى كان يجرى خبيا أمامى فوق الرمال - لقد أصابت الرصاصة
قلبه فطاح راكب الجمل على بعد خمس ياردات أو ست ، وهو يتشقلب .

لقد أعقبت ذلك فوضى هائلة فصرخت النسوة وصاح الأطفال وعم
الصخب بين الرجال وراح كل واحد منهم يجاهد بكل قواه ليقود بعيره
بعيدا عن منطقة الموت ، ولأن الطريق كان ضيقا فقد كان كل ما فعلوه
هو أنهم سببوا زحاما شديدا سد الطريق ، وعند كل طلقة رصاص كان
الخائف المرتعد يجرى ليندس بين الجموع المزدحمة كما لو كان الجراح
قد مس فى جسده أشد أعصابه حساسية ، ولم يكن للخيالة غير
النظاميين أدنى فائدة فى هذه الظروف ، فقد كانوا يقفزون على
الصخور ويأمر كل منهم الآخر ويصيح فيه دون جدوى ، أما باشا
العسكر فأخذ سجاده وذهب عند سفح الجرف الواقع تجاه شمائلنا
وراح يناقش - وهو يدخل شيشته - مع ضباطه ما يجب عليهم عمله
فلم يشر عليه أحد بارتقاء المرتفعات ، وأتى دور الوهابيين (السلفيين)
الذين أثار تصرفهم اعجابى ، فقد هبوا وحثوا جمالهم ، هبوا بغصلات
شعورهم المتشابكة ذات المنظر الفظ - والريح تعصف بها - قاموا
ونيران أعدائهم تلقى على ملامحهم ضوءا متوهجا غريبا ، قاموا وأخذوا
الصدارة ، وبدأ أحدهم يطلق النار على لصوص عتيبة ،
بينما ترجل مائتان أو ثلاثمائة منهم واندفعوا صاعدين التل بارشاد
الشريف زيد ، وكنت قد لاحظت هذا الشريف فى المدينة (المنورة)
واعتبرته نموذجا للعربى الخالص . لقد كان مشهورا بالشجاعة ، وقد
قتل فى هذه المناسبة كثيرين بيديه ، وعندما اضطر - فى الزريبة -
للكوب الى مكة (المكرمة) أقسم ألا يترك القافلة الا على مشارف
مكة ، وكان من حسن حظ الحجاج أن وفى بوعد . وسرعان ما أصبح
صوت قذائف عتيبة بعيدا ولوا الأديار فتقدمت مقدمة القافلة وأصبح
الطريق لبقيتها مفتوحا ، وأسرعت القافلة بعد هذا التوقف الاضطرارى .
لقد كان الأمر يتطلب جهدا للتخلص من الشعور بالخطر ، ولكن الشيخ
مسعودا كان على مستوى الحدث ، ومن الطبيعى أن يكون عدد من
الرجال قد لاقوا حتفهم أو جرحوا ، وقد تناقضت الأقوال فى هذا
الشأن وكانت المبالغة هى السائدة . لقد قيل ان عدد اللصوص كان
مائة وخمسين ، وكان هدفهم هو سلب القافلة وأكل الجمال التى أصابها
الرصاص . لكن طموحهم الرئيسى يتمثل فى الفخر والتباهى المتمثل
نى مثل قولهم : « نحن عتيبة فى ليلة كذا وليلة كذا ، أو قفنا محمّل
السلطان طوال ساعة فى الطريق » .

وفى بداية التراسق كنت قد جلست مع بقية القافلة وقد أعددت مسدسى ليكون جاهزا لاطلاق النار ، لكننى سرعان ما أدركت أنه لا شىء يمكننى عمله ، ولرغبتي فى لفت النظر لى فقد رحت أتحرك فى كل مكان ، محدثا جلبة (هيصة على الفاضى) (١٩) ، ومرة أصعب وأخرى أهبط - كما هو الحال فى الشرق (٢٠) - وقد طلبت احضار عشائى بصوت عال لكن الشيخ نور الذى كاد يموت خوفا - لم يستطع التحرك ، وصرخ الولد محمد قائلا : « ما هذا يا سيدى ! » وعبر الناس من حولى عن دهشتهم قائلين : « يا الله ٠٠ انه يأكل ! » أما الشيخ عبد الله المكى فقد كان مرحا فسألنى من شقوفه الذى كان خلفى : « أهذه عادات الأفغان يا أفندم » فقلت له بصوت عال : « نعم ، فى بلادى يأكلون قبل مواجهة اللصوص ، فمن غير اللائق أن يموت الشخص جوعان » فضحك الشيخ بصوت عال ، بينما الرجال المحيطون به يشجبون تصرفى . وقد ظننت أن تظاهرى بالشجاعة فى هذا الموقف كان تصرفا فى غير موضعه ، لكن قليلا من الأحداث التى حدثت بعد ذلك وأنا فى طريقى الى جدة ، أثبتت أننى لم أكن مخطئا تماما .

وكلما تقدمنا فى المسير ، كانت الحامية مهتمة باشعال النار فى كل شجرة جافة من أشجار الصقلاب (بضم الصاد وتسكين القاف) لنستظل بدخانها . لقد أصبح المشهد مرة أخرى وحشيا كمشاهد البرية .

فكم من البرارى قطعت

وكم من منحدرات عليها صعدت

وكم من شواطئ عبرت

لكننى أقسم بكل مقدساتى

أن مثل هذا ما رأيت

لم أر كهذا فى سمو قحوسته

فى كل المواطن التى طفت فيها وجلت .

وفى الجانب الآخر كانت هناك جروف مضلعة زوات منظر قساتم وغازب وقد اختلطت قممها بالظلمة وكان بين هذه الجروف شقوق

(١٩) النص nowhere does Bobadil - (المترجم) .

(٢٠) من الواضح أنه يشير لشخصية (الهجاص) أو ما يسمى شعبيا بكذاب

الزفة - (المترجم) .

يبدو منظرها مهولا ، وكانت حشودنا تسرع وقد اختلط صياحها بطلقات البنادق ، وقد كون دخان المشاعل ونيران الليل التي تم اشعالها فى شجر الصقلاب الجاف - فوق رموسنا ظلة كأنها فرو السمور الأسود .
لقد غطانا الدخان كملاءة وقسم الجرف (المنحدر) الصخرى) الى قسمين متساويين ، فهنا نجد النار تتأجج بضراوة سى أشجار الزعرورة الشوكية الطويلة التي تطلق بفعل النار مرسله شرر اللهب وشظاياها فى الهواء ، وهناك يموت الشرر وتنطفئ الشظايا وان بقيت تشكل ومضات متوهجة تتجمع معا وكأنها نهر الجحيم حقا . وعلى أية حال فان هذا المنظر الجدير بالتصوير تسبب فى بعض المضايقات ، فلم يكن هناك ممر فقد عاقت الصخور وكتل الأحجار طريقنا . وترى الجمال وقد أعمأها الظلام مرة وغشيها ضوء النيران مرة خرى وراحت الجمال تتعثر مرة اثر مرة ، ففى مواضع تنزلج فوق منحدر شديد ، وفى مواضع أخرى تنزلق أخفافها على مساحات من طين ، وحدث شجار ضار وسباب متبادل بين أصحاب الجمال ومستأجريها ، وتقاذف رفاق الطريق بعبارات التهديد والوعيد ، والحقيقة أننا كنا جميعا فى حالة تنافر ، يعوزها الانسجام . لقد قضيت هذه الليلة فى صياح : « هاى ٠٠ هاى » (٢١) ، أضرب الجمل وأحاول عبثا أن أحث ابن أخى مسعود على القيام ، لكنه كان مصمما على النوم فوق قرب الماء ، وقد توقفنا وقفات قصيرة للراحة أربع مرات أو خمسا ، حيث كنا نتناول القهوة وندخن الشيشة ، ومع هذا فقد كان البشر والدواب قد بدءوا يعانون من انهك حقيقى .

وفى فجر السبت ، العاشر من سبتمبر وجدت أننا لازلنا نساغر فى بطن المسيل الذى بلغ عرضه هنا زهاء مائة ياردة . وكانت القلال الجرانيتية على الجانبين أقل تحدرا ، أما حدود بطن المسيل فقد أصبحت بمثابة رصيف طبيعى من طين متماسك . وكان بطن المسيل موحلا فى مواضع كثيرة وتسببت المواضع الزلجة - كما هو المعتاد - فى وقوع حوادث ، فعندما كنت أنظر خلفى للشيخ عبد الله الذى كان يركب - وقتئذ - فى الشقدوف الجميل للعجوز على بن يس - وجدت أن سيقان الجمل الأربع قد اختفت من تحته فجأة ، ومال بجانبه الأيمن على الأرض ، وطرح الراكبان (عبد الله وعلى بن يس) بشدة خارج الشقدوف ، ونهض عبد الله ثائرا وراح يسب البدوى - الذى لم يكن حاضرا - بهمة بالغة ، فقد صاح قائلا - مستعيرا المثل التركى :

(٢١) اشرنا فى حاشية سابقة أن هذه الكلمة تنطق بامالة الالف لتكون بين الالف

والياء - (المترجم) .

« أطعم هؤلاء العرب ، وهم على استعداد لاشعال النار فى السماء » (٢٢)
لكننى لاحظت أنه بمجرد حضور البدوى (الشيخ مسعود) حتى أصبح
عبد الله (الحضرى) أبكم لا ينطق .

ثم اتخذنا اتجاهها شماليا فرأينا المضيق Mazik
وهو مشهور بوادى ليمون Wady Laymon وعند الحد الأيمن للوادى
(المسيل) أقيم سرادق شريف مكة ذو اللونين الأخضر والذهبى وأحاط
رجال الشريف به ، فى انتظار استقبال باشا القافلة . وتقدمنا نصف
ميل وعسكرنا على نتوء يطوق تلا ، وقد امتد - أى النتوء - فى بطن
المسيل (الوادى) . وعند الساعة الثامنة صباحا ، كنا قد قطعنا حوالى
أربعة وعشرين ميلا من الزريبة حتى محطة توقفنا الحالية فى اتجاه
جنوبى غربى بخمسين درجة .

ولم يسمح لنا الشيخ مسعود الا بأربع ساعات راحة فهو يرغب
فى أن يسبق بقية القافلة ، وبعد أن أفطرنا ليمونا ورمانا وبلحا طازجا ،
رحنا ننطلق لنتذوق نواحي الجمال فى المكان . اننا الآن فى أرض
عربية تقليدية ، تلك الأرض التى عشقها الشعراء العرب القدامى :

عفت الديار محلها فمقامها
بمنى تأبد غولها فرجامها
فمدافع الريان عرى رسمها
خلقا كما ضمن الوحي سلامها

وهذا الوادى مشهور بنقاء هوائه ، لذا ، فهو منذ الجاهلية مكان
أثير لانتجاع أهل مكة ، فلا شئ يمكن أن يكون أكثر اراحة للنفس
والعقل من الأوراق الخضراء الداكنة لأشجار الليمون والرمان ، ومن
عند سفح التل كان ينساب جدول ماء رقرق خلال البساتين فيمدّها
بالحياة ويصدق فى أرجائها بالخيرير الذى تعرفه الطبيعة فى هذه
الأرجاء (٢٣) .

وعند الظهر تماما أمسك مسعود برسن (بفتح الراء والسين)
جمل المقدمة وبدأنا المسير فى المسيل (الوادى) ، وكانت جماعات

(٢٢) قد يكون المثل اقصى من ذلك فالنص الانجليزى :
They will fire at Heaven.
(المترجم) .

(٢٣) ويسوق بيرتون هذا النص لوصف الماء الرقرق :
"Chaire, fresche e dolci aque"

الفتيات البدويات ينظرن من فوق أسوار البساتين - ضاحكات ، وأقبل الأطفال علينا يقدمون الفاكهة الطازجة والماء العذب . وفى الساعة الثانية ظهرا - وكنا نتخذ اتجاهها جنوبيا غربيا - وصلنا الى نقطة استدار فيها بطن السيل تجاه اليمين ، فغادرناه وصعدنا حيدا (بتسكين الياء) جرانيتيا وعرا ، بعد مشقة ، وقبل انقضاء ثلاث ساعات دخلنا سهلا تحفه التلال أسماء رفاقى سهل سولا Sola وفى بعض المواضع وجدنا مجموعات أشجار وقرى متناثرة مما يشير لاقترابنا من مكة . وبعيدا - عن شمائلنا - بدت قمم الطائف Taif الزرقاء ، كما بدا الطريق الجبلى يمتد كخط أبيض فوق المرتفعات الأكثر قربا منا . وقد رأيت هنا لأول مرة شجرة البلسم المكى - أو شجيرة البلسم وهو الأقرب للصحة - وهو مشهور جدا لخواصه المنشطة والمساعدة على الهضم . وسألت الشيخ مسعود أن يقطع منها غصنا فقطعه باستهتار مما أثار ضحك مجموعتنا ، وتنبه الشيخ المذهول أنه وقع فى أحد المحرمات وأن عليه كفارة . وكان طبيعيا أن يتهمنى بأثنى المحرض وأثنى السبب فى ارتكابه أحد محظورات الاحرام مما سيكلفه ذبح أضحية ، وقد قبلت مساعدته عن طيب خاطر . وقد قام علماء نبات كثيرون فى الآونة الأخيرة بوصف شجيرة البلسم بدقة لذا لن أطيل الحديث عنها فلون لحائها كلون أنبوية « الجوزة » أو « الشيشة » المصنوعة من خشب الكرز ، أما من الداخل فلون اللحاء أصفر فاتح ، أما عصيرها (السائل الذى فى اللحاء أو الذى بين اللحاء والأغصان أو الساق) فلزج جعل أصابعى تلتصق معا .

وفى الساعة الرابعة وصلنا لمر صخرى منحدر صعدناه بشق الأنفس ، فتجلت المنطقة واضحة ، ومرة أخرى وجدنا أحواضا صغيرة عديدة تفصل بينها التلال ، ولما سرنا الهوينى مر بنا موكب شريف مكة عبد المطلب بن غالب وهو رجل كبير السن داكن اللون لا لحية له ، له ملامح أفريقية ورثها عن أمه . وقد أظهره لباسه الأبيض وعمامته البيضاء - أسود فاحم السواد ، بسبب التناقض بين بياض ثيابه ولون بشرته ، وكان يركب بغلة تسير بتمهل وليس من شىء يدل على مكانته الرفيعة سوى مظلة كبيرة من ساتان أخضر يحملها أشخاص مترجلون ، ويسير حوله حوالى عشرين رجلا مسلحين بالبنادق القديمة ذوات الفتائل ، معظمهم عبيد ، وبعد الشريف بمسافة غير قصيرة أتى أولاده الأربعة : رضا بك Riza Bey وعبد الله وعلى وأحمد ، وكان أحمد ما يزال طفلا ، وكان الاخوة الثلاثة الكبار يركبون جمالا أصيلة مسرعة ، وكانوا شبابا ذوى طبيعة مرحة لهم ملامح أهل مكة يلبسون

ملابس حريرية فاتحة اللون أما سلاحهم - فيدل على طبقتهم الاجتماعية : السيوف والخناجر ذوات المقابض الذهبية .

ولما اقترب المساء توقفنا ، ورحنا جميعا نحملق - عبثا - لنرى مكة (المكرمة) التى تقع فى واد ملتق . ورحت - بتوجيهات من الشيخ عبد الله - أردد الابتهالات التى سأوردها فيما يلى بعد الدعوات المعتادة ، واثبه القارئ الى صعوبة نقل وقع الكلمات ونغماتها باللغة العربية الى لساننا الأوروبى :

« اللهم اجعل حرمك هذا حرما آمنا .. آمين ، اللهم حرم بدنى ولحمى وعظامى على النار ، ونجنى من عذابك يوم العرض عليك ، فانت الله الرحمن الرحيم لا شريك لك ، وصلى اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى أصحابه أجمعين » وبعد ذلك رحت أردد التلبية وأدعو لنفسي .

ثم ركبنا مرة أخرى وأصابنا قدوم الليل بخيبة أمل ، وفى حوالى الساعة الواحدة استيقظت على أصوات هتاف عام : فقد كان البعض يصيحون : « مكة ! مكة ! » وآخرون يقولون : « الحرم ! الحرم ! » وانخرط الجميع فى عاصفة من التلبية الحارة يتخللها بكاء الشوق الحار ، ونظرت من خلال شقدوفى ورأيت مستعينا بضوء النجوم الشمالية الحدود الخارجية لمكة (المكرمة) والتى كانت معتمة قليلا . لقد كنا نمر فوق الجرف (الحيد) الأخير عند انحناءة (ثنية) تعرف بثنية قضاة Saniyat kuda'a وكانت محاطة من الجانبين بأبراج المراقبة التى تطل على درب المعلا أو الطريق الذى يؤدى من الشمال الى داخل مكة (المكرمة) ثم مررنا داخل المعابدة وهو الضاحية الشمالية (الحى الشمالى) وفيه قصر الشريف ، وبعد ذلك - عن شمالنا - وجدنا المسكن المعزول للشريف ابن عون ، ويقال انه الآن أهل بالسكان وفى مواجهته توجد جنة المعلا وهى مقبرة مكة التى تحظى بالتبجيل ، ثم استدرنا ناحية اليمين فدخلنا السليمانية أو الحى الأفغانى . وهنا كان على الولد محمد أن يظهر بعض التحايل والذكاء فهو من سكان حى الشامية والعلاقات بين الحيين (السليمانية والشامية) علاقات سيئة : فالأطفال لا يتقابلون دون تبادل القذف بالأحجار ، ويتقاتل الرجال بضراوة بالنابيت ، وفى بعض الأحيان فانهم - رغم المحاذير الدينية - يسحبون سيوفهم وسكاكينهم . لكن لعداوتهم تقاليد يراعونها ، فالدية تدفع لأهل المقتول ، وإذا مر أحد أبناء حى بمفرده فى الآخر كان بمثابة ضيف ، لكن قد يحدث أن يتعرض للضرب - بلا حياء - على يد أعدائه المضيفين .

وفى السليمانية تخيلنا عن الطريق الرئيسى ودخلنا طريقا فرعيا
وصعدنا فى أزقة ضيقة فى مرتفعات جبل هندى الذى يوجد فوقه مبنى
أبيض به شرفات لاطلاق النار يسمونه قلعة .

ثم هبطنا خلال شوارع مظلمة متعرجة الى أماكن مزدحمة بأكوخ
بدائية وبشر ذوى ملامح معتمة ، وأخيرا وصلنا فى الساعة الثانية
صباحا لباب منزل الولد محمد .

لقد بلغت المسافة من وادى ليمون الى مكة (المكرمة) - وفقا
لحساباتى - حوالى ثلاثة وعشرين ميلا ، فى اتجاه الجنوب الشرقى
بخمسة وأربعين درجة . وقد وصلنا مكة المكرمة فى صبيحة السبت
السابع من ذى الحجة (١١ سبتمبر ١٨٥٣) قبل بداية الحج بيوم
وذلك للراحة ولزيارة الحرم .

وأنهى هذا الفصل بملاحظات قليلة عن تجمعات المياه فى الحجاز،
فالمناطق - فى رأى المتواضع - تشكل منحدرًا الى الجنوب والى
الغرب (٢٤) . وعلى أية حال فمصادر معلوماتى قليلة - الا من الاقتناع
لراسخ للعرب المعاصرين الذين يؤكدون أن هذا الجزء من شبه الجزيرة
العربية ينحدر من الشمال ، فكلهم يذكرون أن مسار المياه يتخذ اتجاهًا
جنوبيا ويعتقدون أن المياه فى عرفات تتسرب تحت الأرض قادمة من
بغداد (٢٥) ومسألة انحدار شبه الجزيرة العربية لا تزال موضع خلاف
كما يعلم الجغرافيون (٢٦) . ورتز Ritter وجومارد Jomard
وبعض المؤلفين العرب يجعلون المنطقة ترتفع فى اتجاه الجنوب ، بينما
فالن Wallin وآخرون يقولون بالعكس ، فمن البحر الأحمر الى
المسهل Al-Musahhal يوجد ارتفاع طفيف ، والعلامات المائية
فى المسيلات تظهر أن المدينة (المنورة) فوق مستوى الساحل (البحر)
بشكل ملحوظ رغم أن الجغرافيين قد لا يكونون على حق بالاستشهاد
بجبل رضوى الذى يبلغ ارتفاعه ستة آلاف قدم ، فحتى هذا الارتفاع

(٢٤) هذا غير صحيح بالتأكيد ، وعلم الجغرافيا الحديث يؤكد عكس ذلك أى أن
الانحدار العام لشبه الجزيرة العربية للشرق والشمال - (المترجم) .

(٢٥) طبعا لقد أصبح مؤكدا الآن أن هذا غير صحيح فالتألم فى المرحلة الاعدادية
يعلم أن وسط شبه الجزيرة العربية يشكل هضبة تنحدر انحدارا شرقيا وشماليا شرقيا .
فكيف تصل مياه بغداد الى الحجاز فى مسار تحت الأرض ؟! - (المترجم) .

(٢٦) لم تعد كذلك الآن فالهضبة بشكل عام تنحدر الى الشمال والى الشرق -
(المترجم) .

قد لا يكون شديدا بالنسبة للهضبة التى يوجد فيها قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) • ومن المدينة المنورة الى السويس يوجد ارتفاع طفيف آخر ، ومن السويس الى الزريبة يدلنا ركود المياه على المستوى • واعتقد أن التقارير عن بحيرة دائمة فى شرق الحجاز محاطة بالشك تماما كالنهر الذى جعله بطليموس (٢٧) يجرى بين ينبع ومكة (المكرمة)، ولم يستطع أى بدوى أن يخبرنى عن هذه المظاهرة التى - لو وجدت - لغيرت كافة أحوال المنطقة وتاريخها ، فهذا النهر الاغريقى (٢٨) قد يكون مسيلا Fiumara (مؤقتا) أما البحيرة فقد تكون مؤقتة نشأت عقب سيل • وبدءا من الزريبة نلاحظ انحدارا يستمر حتى يصل البحر • أما سيل عرفات فيندفع من الشرق الى الغرب وقد يجرف - لفرط قوته - المساكن معه بل ويلحق الضرر بالمباعر المقدسة (٢٩) •

(٢٧) عالم فلكى جغرافى ، سطع نجمه فى الاسكندرية (١٢٧ - ١٥١ م) ولا علاقة له بالبطالسة أو البطالة الذين حكموا مصر فى الفترة من ٢٢٢ ق.م الى ٣٠ ق.م • (المترجم) •

(٢٨) وصفه بهذا الوصف لأن من تحدث عنه هو بطليموس - (المترجم) •

(٢٩) فيما يلى موجز لمراحل مسيرتنا ، وقد حدث خطأ فى خريطة بوركهارت أدى لخطأ فى عشرة أميال •

مسلسل من ٠٠٠ الى	الاتجاه	الدرجة	المسافة بالميل
١ - من المدينة الى جا الشريفة	جنوب شرق	٥٠	٢٢
٢ - من جا الى غراب	جنوب غرب	١٠	٢٤
٣ - من غراب الى الحجرية	جنوب شرق	٢٢	٢٥
٤ - من الحجرية الى السويرقية	جنوب غرب	١١	٢٨
٥ - من السويرقية الى السفاينا	جنوب شرق	٥	١٧
٦ - من السفاينا الى بنو مطير	جنوب غرب	٢٠	١٨
٧ - من بنو مطير الى الغدير	جنوب غرب	٢١	٢٠
٨ - من الغدير الى البركة	جنوب شرق	١٠	٢٤
٩ - من البركة الى الزريبة	جنوب شرق	٥٦	٢٣
١٠ - من الزريبة الى وادى ليمون	جنوب غرب	٥٠	٢٤
١١ - من وادى ليمون الى مكة (المكرمة)	جنوب شرق	٤٥	٢٣ = ١٤٩
اجمالى الاميال الانجليزية		—	٢٤٨ ميلا انجليزيا

الفصل السابع والعشرون

أول زيارة لبيت الله (الحرام)

بيت الولد محمد - أمام بيت الله احسست بوجود صوفى - هل
يعبد المسلمون الكعبة ؟! - الحجر الأسود نيزكى وليس بركانيا -
ماء زمزم - الطواف - الدعاء - الملتزم - مسلمو أوروبا الشرقية
(الترك السلاف) - الكعبة تؤكد فكرة التوحيد التى صاغت التاريخ
الإسلامى - حمام الحمى فى مكة وفى التراث العالمى - الحمام
لا يظهر على سطح الكعبة - شخص ملبوس عند الكعبة

لقد تركنى الولد محمد فى عرض الطريق ، وراح - أخيرا - يحث
الخادم الهندى النائم والمرهق ، بركلات عنيفة واجابات استنكارية
وضع هو نفسه أسئلتها عن محاذير تبليغ العشرين - ليهب (أى الهندى)
ويفتح البوابة الضخمة ، وصعد الولد محمد السلم ركضا ليحتضن أمه .
وبعد دقيقة سمعت زغرودة (لولو Lulu) وهو صسوت يبعث
البهجة فى نفس العائد لبيته ووطنه ، ويكون فى حلق الغريب غصة .

وسرعان ما عاد الشاب (الولد محمد) بعد أن تبدل حاله فأصبح
وقورا مجاملا بعد أن كان صخابا مهرجا - لقد أصبحت ضيفه ،
فاصطحبني الى بهو معتم وأجلسنى على سجادة فوق مصطبة وطلب
من الخادم الهندى أن يحضر ضوئا . وفى هذه الأثناء سمعت أذننى
الجائعة للسمع (المتنصتة) صوت قرقرة متناقلة لشبشب أو (قبتاب)
فى الدور العلوى ، فعرفت أن « الست الكبيرة » كانت منشغلة فى
اعداد واجبات الضيافة . فعندما أنزلت الجمال أحمالها ، ظهر طبق
من « الكفاة » مرشوش عليه السكر . ولم أضع وقتا لا أنا ولا الولد
محمد ولا الشيخ نور فى دس أيدينا الأيامن ، والحق أقول لكم لقد
وجدنا الكفاة لذيدة - خاصة بعد هذه الرحلة التى تعرضنا خلالها
للجوع . وبعد الوجبة دبرنا حشيات وأغطية من المقهى المجاور وانطرحنا

قلقين متعبين نريد انتزاع ساعة أو ساعتين للراحة ففى الفجر كان علينا أن نؤدى شعيرة « طواف القدوم » فى الحرم المكى .

وبمجرد ابتسام شعاع الصباح فوق قمة جبل أبى قبيس الوعرة ، نهضنا واغتسلنا وذهبنا بملابس الاحرام للحرم ، فدخلناه من باب زيادة Ziyadah وهو الباب الرئيسى من ناحية الشمال ، وهبطنا درجيتين طويلتين (بسطتين) وعبرنا الصحن وواجهنا بيت الله .

- * -

وأخيرا تحقق هدف آمالى ومخططاتى التى استغرقت أعواما كثيرة ، وهدف رحلتى الطويلة الشاقة لأداء الحج . ولا شك أن الوسط السرابى والوجد الدينى يعطيان لهذا المبنى وما عليه من ستارة كالتيلسان - جاذبية خاصة . فالكعبة (المشرفة) لا تمثل أثرا عملاقا أشيب كما فى مصر ، ولا أثرا يتسم بالتناسق والجاذبية الفنية كما فى اليونان وإيطاليا ، ولا هى أثر يتسم بالروعة البربرية كما فى مبانى الهند ، لقد كان منظر الكعبة (المشرفة) غريبا متفردا ، وقليلون هم الذين وضعوا المبنى فى اعتبارهم عند النظر إليها ، ويمكننى أن أقول بصدق انه من بين كل المؤمنين العابدين المتعلقين باستقرار الكعبة باكين ، والضباغطين بقلوبهم على الحجر الأسود ، لا أحد أعرق مشاعر من الحاج القادم من الشمال البعيد ، لقد بدا الأمر كما لو أن الحكايات الشعرية العربية تنطق بالصدق وأن أجنحة الملائكة - لا نسائم الصباح - هى التى تحرك أستار الكعبة (كسوتها) السوداء . ان المشاعر الدينية الفياضة والمتحمسة تؤدى لهذا التصور ، أما بالنسبة لى فقد أحسست بانجذاب صوفى واحساس بالرضى .

وقليل من المسلمين هم الذين يتأملون الكعبة للمرة الأولى دون أن يعترهم خوف وخشية ، فثمة فكاكة شائعة عن القادمين للحرم المكى للمرة الأولى أنهم يسألون عن اتجاههم أثناء الصلاة (القبلة) ففى الحرم المكى يمكن للمصلى أن يستقبل الكعبة من أى اتجاه ويصلى ، وهذا لا يحدث فى أى موضع آخر الا فى الحرم المكى . لقد تركنى الولد محمد أخلو لنفسى لدقائق قليلة لكنه سرعان ما نهبنى الى أنه قد حان وقت البدء ، فتقدمنا ودخلنا باب « بنو شيبه » حيث رفعنا أيدينا ولبينا وكبرنا وهللنا وتلوينا ابتهالات ودعوات مخصصة ومسحنا

وجوهنا - بعد ذلك - بأيدينا ، ثم اتجهنا الى مقام الشافعية (١) (موضع صلاة اتباع مذهب الامام الشافعى) وهو مساحة مكشوفة بين مقام ابراهيم وبئر زمزم فصلينا الركعتين التقليديتين تحية للمسجد (٢) وأعقب ذلك تناولنا كوبا من ماء زمزم المبارك وقدمت هدية للسقائين الذين وزعوا باسمى جرة ماء فخارية كبيرة على الحجاج الفقراء .

وهناك خلاف فى أصل كلمة زمزم ، فهناك من يجعلها مشتقة من زمزمة الماء فى البئر أى الصوت الذى يحدثه الماء ، وآخرون من قول هاجر : زم . زم أى املاً . . . املاً وهى الكلمات التى قالتها وهى فى حالة تعجب عقب ظهور الماء أما سيل Sale فقد ترجمها : ابق . . . ابق ، وذكر أن هاجر نطقت الكلمات بالمصرية (القديمة) لتمنع ابنها من التجوال ، أما حكماء الاسلام الذين يربطون عقيدتهم بعبادة كوكب الزهرة خاصة والأجرام السماوية عامة فيجعلون زمزم مشتقة من اللغة الفارسية .

(تعليق المترجم : لا ندرى المقصود بالحكماء أو حكماء الاسلام وبيروتون يقصد غالبا هنا المنجمين ويطلق عليهم أحيانا لفظ الحكماء ، ولا نجد أى سند علمى أو منطقى لنسبة زمزم للفارسية ، فقد كانت هاجر مصرية ولم تكن فارسية ، وما كان ابراهيم الخليل عجميا . وهذا الكلام الذى سمعه بيروتون يشير بالتأكيد لهرطقات فارسية أو شيعية ، ولم يربط أحد من المسلمين بين العقيدة الاسلامية وعبادة الأجرام السماوية أو الزهرة ، بل ان القرآن الكريم ينص صراحة على كذب هذا الادعاء من خلال حوار ابراهيم الخليل مع نفسه أثناء تأمله للكون ، فرفض عبادة القمر ثم عبادة الشمس ، ثم وجه وجهه شطر الذى خلقه (٣) . وقد جعل هؤلاء الحكماء معنى زمزم : « النجم العظيم الذى خلقه the great luminary » ويقولون فى هذا الصدد ان زمزم - مثل الكعبة - تشير الى عبادة الشمس والنار اللتين تستحقان توقير الانسان ، لذا فان الشاعر الفارسى الخاقانى Khakani يقول :

يا كعبة ، أنت مسافر السماوات

ويا كوكب الزهر ، أنت نار العالم

(١) انتهى ذلك كما هو معلوم ، والمسلمون السنة يصلون معا بصرف النظر عن المذهب (شافعى أو حنبلى أو سنى أو حنفى) بل ان مسلمين كثيرين الآن لا يهتمون بمسألة المذاهب هذه - (المترجم) .

(٢) تحية المسجد الحرام هى الطواف - (المترجم) .

(٣) ما بين القوسين اضافة من المترجم .

(تعليق المترجم : أهل السنة والجماعة ، والمتفقون المسلمون يعتبرون مثل هذا الكلام سخفا ما بعده سخر ، فالكعبة المشرفة قد رفع إبراهيم الخليل وابنه اسماعيل قواعدها - ويروق مثل هذا الكلام عادة للدراويش وبعض الصوفية الذين يجدون في فتح باب التفسير الباطني مجالا رحبا للتخلص من قيود الشريعة) (٤) .

وعلى هذا فان وحيد محمد ، مؤسس مذهب الواحدية wahidiyah sect يعترف بالكعبة والشمس ، وفي هذا الصدد يقول : ان الباب يواجه الشمس ، فاليمين (تعنى اليد اليمنى) والشام تعنى (الشمال أو اليد الشمال) والقبل (بضم القاف والياء) تعنى المشرق (أو الواجهة) والدبر (بضم الدال والياء) تعنى الغرب ، ويحدث أن المصلين (العابدين) يقابلون - اثناء تعبدهم - مشرق الشمس .

(تعليق المترجم : أصابع الباطنية واضحة في مثل هذا الكلام الذى ينقله بيرتون ، وقد سمعه أو قرأه من مصادر غير نقية ، فالنصوص الدينية الإسلامية الصحيحة كانت حريصة على ألا تكون الشمس معبودا فإبراهيم الخليل فى النص القرآنى يقربان الله سبحانه وتعالى هو الذى يأتى بالشمس من المشرق ، فللشمس اله هو الهنا واله العالمين وحده لا شريك له ، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم تفيد أن الشمس « مأمورة » وقال « أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله » وقال « لا يتحين أحدكم طلوع الشمس أو غروبها » ٠٠٠ الخ) (٥) .

ووفقا لما يقوله الحكماء (المقصود : المنجمون) (٦) فان الحجر الأسود الأصلى يمثل كوكب الزهرة .

(تعليق المترجم : ما سمعنا بهذا ولا قرأناه ، ولا يقره مسلم مثقف) (٧) لأنه فى السماوات (وقد يكون المقصود فى الفردوس heavens) (٨) يمثل الكوكب السيار ويرمز - أى الزهرة - لقوى الطبيعة المتولدة (٩) « فبطاقته الايجابية يدفأ العالم فتنبعث فيه الحياة والحركة » . وينتقد الهندوس المسلمين لتوقيعهم بيت الله (الكعبة المشرفة) . يقول الشاعر الهندوسى راي منشار Rai Manshar

(٤) ما بين القوسين اضافة من المترجم .

(٥) ما بين القوسين للمترجم وقد استعنا بالمعجم المفهرس للحديث النبوى لايراد بعض الاقتطعات من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٦) ما بين القوسين اضافة من المترجم .

(٧) ما بين القوسين اضافة من المترجم .

(٨) ما بين القوسين اضافة من المترجم .

« يا مسلم اذا كنت تعبد الكعبة

فلم تلوم عبدة الأصنام ؟ »

« Oh, Moslem, if thou worship the ka'aba why reproach the worshippers
of idols »

(تعليق المترجم المسلمون لا يعبدون الكعبة ، ولا يعبدون الحجر
الأسود وعمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول انه حجر لا يضر ولا ينفع ،
والكعبة المشرفة تمثل بالنسبة للمسلم رمزا فالمسلم يعبد رب البيت
لا البيت نفسه ، ويقسم برب الكعبة لا بالكعبة ذاتها ، وتوقير الكعبة
راجع لأنها أول بيت وضع للناس ، واذا كان بعض العوام يخلطون
الامر ، كما يخلطون عند قبور الأولياء ، فهذا لا يحسب على الفكر الإسلامى
- وربما كان ما يقوله غير المسلمين فى هذا الصدد عبرة للمسلمين
لمزيد من التثوير) (٩) . كما أن مسيلمة الذى لم يحظ من التاريخ
الا بلقب « كذاب » سمح لاتباعه - فى محاولته ايجاد عقيدة جديدة -
أن يولوا وجوههم فى أى اتجاه قائلا : « اننى أوجه وجهى لمن لا جنب له
أو اتجاه أو تمثال (صنم) » وهى عقيدة قد تكون معقولة على المستوى
التجريدى لكنها لم تكن عملية بما فيه الكفاية لضم عرب كثيرين اليه .
تعليق المترجم : فى كتب السيرة النبوية وكتب حوليات التاريخ
الإسلامى - وقد راجعنا غالبها - ما يفيد أن مسيلمة الكذاب قد أرسل
للمرسول (صلى الله عليه وسلم) يقول له : « اشركت فى الأمر معك » أى
أن الكذاب كان على استعداد للتظاهر - على الأقل - بالأخذ بكل ما قاله
محمد (صلى الله عليه وسلم) بشرط أن يكون هو - الآخر أى مسيلمة -
نبيا ، وقد رد عليه الرسول قائلا قولته التى حفظها التاريخ « من محمد
ابن عبد الله الى مسيلمة الكذاب » ، اما قول مسيلمة - أن صح - بعدم
ضرورة التوجه للكعبة أثناء الصلاة ، فيرجع لخلافات قبلية وعداوات
عرقية - فى ذلك الوقت - بين أهل اليمامة (وسط شبه الجزيرة
العربية) وأهل تهامة والحجاز ، لذا فالحركة التى تسمى اصطلاحا
بحركة الردة فى التاريخ الإسلامى ، لم تكن بشكل عام انكارا لمبادئ
الإسلام وانما صراعات قبلية وعودة للسفاهة القديم ، فحن نجد قائلهم
(واحد ممن يقال لهم المرتدين) يقول مستنكرا : « أنعطى الزكاة لابن
أبى قحافة ؟ ! » وهذا يعنى انه لا مانع عنده من تقديم الزكاة لكن ليس
لابن أبى قحافة (أبى بكر) . انه اعترض على الخليفة ! . وأبو بكر
الصديق يقول : « لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه لرسول كله لقاتلتهم
عليه » وهذا يعنى أن المسألة هى منع الزكاة عن الدولة وليس انكارهم

(٩) ما بين القوسين اضافة من المترجم .

لبداً التوحيد - بشكل عام • أما بالنسبة لمسيلمة الكذاب فقد دفعته العصبية للتمادى عندما لم يجبه الرسول (صلى الله عليه وسلم) لدعائه المشاركة فى النبوة فأبطل الصلاة وأحل الخمر ••• لكن أمره سرعان ما انتهى (١٠) •

ويحظى ماء زمزم بتقدير فائق فهو يستخدم فى الشرب والوضوء ، ولا يستخدمونه فى الأغراض الأخرى العامة ، وينصح أهل مكة الحجيج بأن يكون ماء زمزم أول ما يتناولونه صباحاً • وهو - على نحو ما - يسبب الاسهال والبثور ، ولم أر - أبداً - غريباً يشرب منه دون احساس بعدم الاستساغة وقد أكد سيل Sale - عن حق - أن طعمه مالح يميل للمرارة فطعمه يشبه الى حد كبير طعم ماء فاتر فى قدح كبير أضيفت اليه ملعقة من الملح الانجليزى (ملح ابسوم Epsom Salts) وأكثر من هذا فهو « ثقيل » جداً وعسر الهضم • لذا فإن الأتراك وغيرهم من الغرباء يفضلون (للشرب) مياه الأمطار المجموعة فى خزانات ، والتي تباع القرية الصغيرة منها بخمس فارزنجات Forthings لقد كان أمراً طريفاً بالنسبة لى أن لاحظهم وهم يشربون الماء المقدس (ماء زمزم) ويبدون عدم استساغتهم له •

فالذين وجهوا النقد القاسى لـ Calcutta Review (عدد ٤١ ، مقالة - ١) استناداً الى طعم ماء زمزم - نقدهم لا أساس له من الصحة • ففى هذه الأيام نجد المنتقد لا يمكنه التملص من أحكامه المتسرعة ، ففى كلكتا أو بمبائى ، يمكنه بسهولة أن يجد جرة مليئة بماء زمزم ، فى استطاعته أن يتذوقها بنفسه • وقد لاحظ السيد موير Muir فى كتاب : حياة محمد ، المجلد الأول - صفحة cclviii أن طعم الماء سيئ المذاق الذى تم الاحتفاظ به لشهود قد لا يكون معياراً أو مقياساً لطعم الماء ذاته عندما يكون طازجاً أى تم سحبه من البئر حديثاً • لكن من السهولة بمكان أن نحلله •

ويتم نقل ماء زمزم لمناطق بعيدة فى جرار فخارية موضوعة فى سلال ومغلقة ، ومختومة بخاتم الزمامة (المسئولين عن بئر زمزم) • والمتدينون يحرصون على أن يكون ماء زمزم هو أول ما يتناولونه عند افطارهم فى رمضان ، ويضعونه فى عيونهم لتقوية ابصارهم ، ويشربون

(١٠) التعليق للمترجم لتوضيح أمر مسيلمة بالرجوع لما كتبه البلاذرى فى فتوح البلدان وهيكىل فى حياة محمد ، وعلى عبد الرزاق فى الاسلام وأصول الحكم ، وما كتبه المترجم فى كتابه « الفتاوى الكنسية ، مع اشارات للفتاوى الاسلامية فى التاريخ » •
(المترجم) •

قطرات قليلة منه عند الاحتضار فساعتها يكون الشيطان واقفا الى جوار المحتضر حاملا جرة من ماء عذب ، ثمنا للروح الراحلة (١٩) . وبطبيعة الحال ، فان المبالغات الحديثة عن ماء زمزم ليست بغير أساس ، فاهل مكة يعدون وفرة ماء البئر أمرا اعجازيا ، وفي المناطق البعيدة يعتبر الناس شرب ماء زمزم معينا للطالب على نطق اللغة العربية ، وفي كل مكان تعد قطرات من هذا الماء غير المستساغ هدية ثمينة من وجهة نظر دينية (١١) .

ثم تقدمنا صوب الزاوية الشرقية للكعبة (المشرفة) التي ثبت فيها الحجر الأسود ، ووقفنا على بعد عشر ياردات منه ثم رحنا نردد وأكفنا مرفوعة للسماء : « لا اله الا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، لا اله الا أنت لا شريك لك ، لك الملك ولك الحمد وأنت على كل شيء قدير » . وبعد ذلك اقتربنا بقدر استطاعتنا للحجر الأسود ، ولم نستطع لمس الحجر هذه المرة بسبب زحام الحجاج فرفعنا أيدينا كما نرفعها عند التكبير لأول ركعة ثم قلنا : « يا رب العالمين ، أنا أفعل ذلك ايمانا بك وتصديقا لكتابك واقتداء برسولك صلى الله عليه وسلم ، الهى انى أمد يدى اليك رغبة فيك . اللهم اقبل دعائى وذللى كل العقبات وارحم ذللى واغفر ذنوبى » ، ولأننا كنا لازلنا غير قادرين على لمس الحجر ، فقد رفعنا أيدينا الى آذاننا ، وواجهنا بأكفنا الحجر الأسود كما لو كنا نلمسه وتلونا بعض الدعوات الدينية وكبرنا وهللنا وحمدنا الله ، وصلينا على النبى وقبلنا اطراف أصابع أيامنا . وقد كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يبكى عندما يلمس الحجر الأسود ، وكان يقول انه مكان تذرّف فيه الدموع . ووفقا لما يقوله معظم المؤلفين فان الخليفة الثانى (عمر بن الخطاب) تعود أن يقبله أيضا . ولهذا السبب فان معظم المسلمين - ما عدا أتباع المذهب الشافعى - يلتزم الواحد منهم بلمس الحجر الأسود بكلتا يديه وأن يقبله بالصاق شفّتيه به ، أو لمسه بالأصابع ثم تقبيلها (الأصابع) بعد ذلك ، أو مسح

(١١) قد يكون من المفيد ايراد وصف للرحالة بوركهارت لما زمزم : « انه ثقیل وأحيانا يكون لونه كلون الحليب الا أنه عذب تماما ويختلف عن مياه الآبار الأخرى فى مكة والتي تشوبها الملوحة ، وعند سحب الماء من بئر زمزم للمرة الأولى يكون فاترا . . والبئر فى هذه الخاصية تشبه كثيرا من المنابع المائية فى الحجاز . . . وقد رأيت بعضهم عند البئر يشربون كميات كبيرة منه وما كدت لاتصور أن انسانا يمكن أن يشرب مثل هذه الكمية من الماء . . »

بوركهارت : رحلات فى شبه جزيرة العرب : ترجمة الهلبى

وعبد الرحمن الشيخ . طبعة ١٩٩٢ . ص ١٢٦ - (المترجم) .

الكفين به (الحجر) ثم مسح الوجه بهما (الكفين) . وفى حالة تعذر الوصول للحجر الأسود يكفى الوقوف فى مواجهته وان كانت السنة هى لمسه ، وقد ربط Lucian بين عبادة الشمس وظاهرة تقبيل اليد .

ثم بدأنا شعيرة الطواف (١٢) حول الكعبة فى المطاف وهو المنطقة المبلطة بالجرانيت ذات الشكل البيضاوى حول الكعبة . ورحت أردد وراء المطوف : « بسم الله الرحمن الرحيم . نويت الطواف سبعة أشواط لله رب العالمين » ويسمى النطق بهذه الكلمات اصطلاحا بنية الطواف ، ثم بدأنا الدعاء : « اللهم انى آمنت بكتابك الذى أنزلت ، وبنبيك الذى أرسلت صلى الله عليه وسلم » حتى وصلنا لموضع الملتزم Multazam بين الحجر الأسود وباب الكعبة فرحنا نردد : « اللهم تجاوز عن أخطائنا ، وفى مواجهة باب الكعبة رحنا نردد : « اللهم ان البيت بيتك ، والحرم حرمك ، والأمن أمذك . انا نفر اليك ونعوذ بك من عذاب النار » وعند مبنى صغير يسمى مقام ابراهيم قلنا : « اللهم انى فى مقام الذى لجأ اليك واستعاذ بك من النار ، اللهم حرم دمي ولحمي وجلدى وعظمي على النار » وبينما كنا نخطو ببطء حول الركن الشمالى أو العراقى للكعبة المشرفة قلنا : « نعوذ بك من الشرك والعصيان والنفاق واللجاج ، واحفظ أهلنا وأموالنا وذريتنا » وعند مواجهتنا للميزاب Mizab قلنا : « اللهم انى أسألك ايمانا لا يتحول ويقيننا لا يزول ، وآت محمدا صلى الله عليه وسلم الوسيلة والفضيلة ، وأظلنى فى ظلك يوم لا ظل الا ظلك ، واسقنا من حوض نبيك شربة لا نظما بعدها أبدا » واستدردنا الى الركن الغربى أو الركن الشامى ، وقلنا : « اللهم اجعله حجا مقبولا وذنبيا مغفورا ، وسعيا مشكورا ، وتقبل عملنا ، فأنت غفور رحيم ، ورحنا نكرر ذلك ثلاث مرات ، ولما وصلنا للركن اليمانى فى الجنوب حيث كان الزحام أقل ازعاجا ، لمسنا الجدار بأيماننا وقبلنا أطراف أصابعنا ، وأخيرا - بين الركن الجنوبى والحجر الأسود حيث يكون أحد أشواط الطواف قد انتهى - قلنا : « اللهم انى أعوذ بك من الشرك ، وأعوذ بك من العوز ، وأعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من هم الدنيا ومن العذاب بعد الموت . اللهم انى أعوذ بك من خزي الدنيا والآخرة واغفر لنا واعف عنا . اللهم آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار » وبذلك انتهى شط من أشواط الطواف ، وقد أتممنا الأشواط الثلاثة الأولى ونحن نهول أو نرمل (بفتح النون وتسكين

(١٢) يجعل المسلم كتفه اليسرى نحو الكعبة عند الطواف - (المترجم) .

الراء (بمعنى أن نحرك اكتافنا كما لو كنا نسير فى الرمل ، أما الأشواط الأربعة الأخرى فقد كنا نسير أثناءها فى « تأمل » أى ببطء وبعد كل شوط كنا لا نستطيع لمس الحجر الأسود أو تقبيله بسبب الزحام لذا فقد كنا نشير إليه قائلين (بسم الله ، الله أكبر) ثم نواصل .

وفى نهاية الطواف يستحسن تقبيل الحجر ، وقد وقفت لفترة ، أنظر بيأس لجموع البدو وغيرهم الذين يحاصرون الحجر ويتزاحمون عنده . لكن الولد محمدا كان مفيدا فى هذه الظروف ، ففى أثناء طوافنا أظهر حماسة منقطعة النظير فى سب الفرس وأهل البدع بأن يقم فى دعواته حول الكعبة كلمات قاسية تجعلهم (الفرس وأهل البدع) مضطربين كقوله : « السلام عليك يا مريم ... » أو « لا تضع الخنزير فى الوعاء ... » (١٣) وغير ذلك . وكان يقول مثلا عندما يرى خراسانيا طويل اللحية ، مومنا إليه : « أعوذ بك من الخزى فى هذه الدنيا » . وأعوذ بك من الرفضى ابن الرفضى » (١٤) وأحيانا يقول « يا خنزير يا أخو الخنزيرة » . وهكذا استمر حتى عجبت أن أحدا لم يجسر على تعنيفه ، وبعد أن حاولنا عبثا ازاحة الحجاج الذين لم نكن نر منهم الا عظام اكتافهم ، قام الولد محمد بجمع حوالى اثنى عشر مكيأ أقوياء البنية استطعنا بمساعدتهم شق طريقنا بين زحام ذوى السيقان الدقيقة فالتف البدو حولنا كالقطط البرية ، لكن دون خناجر . لقد كنا فى فصل الخريف فلم يكن هؤلاء البدو قد غدوا أنفسهم بالطليب لسته أشهر لذا فقد كانوا كالموميات حتى اننى كنت أستطيع ازاحة ستة منهم بيد واحدة . وبعد ذلك وصلت للحجر الأسود ، وقد احتكرنا التعامل معه (الحجر الأسود) لعشر دقائق على الأقل ، رغم صيحات الساخطين . وقد تفحصته عن قرب بينما كنت أقبله وأحك جبهتى به وأمسه بيدي ، وفى كل هذه الأثناء حتى ابتعادى عنه كنت أتابعه كحجر نيزكى Acrolite ومن المثير للدهشة أن كل الرحالة أجمعوا على نقطة واحدة وهى أنه حجر بركانى ، فعلى بك (العباسى) يذكره من الناحية المعدنية باعتباره « كتلة من البازلت البركانى ، فى حوافه نقط بلورية (كرسطالية) وبه أشكال على هيئة معينات صغيرة كالنقط وممتدة كعود القش من فلدسبات Feldspath له لون أحمر قرميدى فوق خلفية سوداء كقطعة الفحم النباتى اللامع الا أن أحد بروزاته (نقوءاته) حمراء » وقد ظن بوركهات أن هذا الحجر من حمم بركانية به قطع صغيرة دخيلة بيضاء وصفراء .

(١٣) تعرض الحجر الأسود سنة ١٦٧٤ للتلويت

(١٤) بتشديد الراء وفتحها ، وفتح الفاء ، وهى كلمة تعنى - شعبيا الشيعية .

(المترجم)

وبعد أن قبلنا الحجر الأسود شققنا طريقنا بعنف وسط الزحام الى موضع الملتزم ، فضغطنا ببطوننا وصدورنا وخدودنا الايمان على الكعبة ورفعنا أذرعنا عاليا ورحنا نقول : « اللهم يا رب البيت العتيق اعتقني من النار ونجني من كل شر وارزقني وبارك لى فيما رزقتنى » ثم رحنا نستغفر الله من كل ذنب وصلينا على النبى وراح كل منا يطلب من الله ما يريد .

وبعد التمسح فى الملتزم (بفتح الزاى) عدنا الى مقام الشافعية (موضع صلاتهم) بالقرب من مقام ابراهيم ، وصلينا ركعتين سنة الطواف . قرأنا فيهما « قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ٠٠ الخ » وسورة الاخلاص : « قل هو الله أحد ٠٠٠ الخ » ثم ذهبنا الى باب مبنى بئر زمزم ، حيث تجرعت شرية أخرى منه (١٥) وصيبت فوق رأسى قربتين منه ، فهذا يسقط الخطايا عن الروح كما يسقط الغبار عن الجسد . وعند شرب ماء زمزم كنا نقول « اللهم ارزقنا وعلمنا واشفنا » ثم عدنا تجاه الحجر الأسود ووقفنا فى مواجهته لعدم امكاننا الاقتراب منه وهللنا وكبرنا وحمدنا الله ، لقد كانت أقدامنا ملتبهة (تذكر أئنا خفاء) وكانت رءوسنا محترقة (تذكر أن رءوسنا غير مغطاة) ، ولم أغادر المسجد الحرام الا الساعة العاشرة بسبب أمور تسببت فى تأخرنا .

لقد أخطأ الولد محمد فى حساب امكانية اقامتنا فى بيت أمه ، فلأنها امرأة بلا بعل وتعيش وحيدة ، فقد عهدت بغرف بيتها فى هذا الموسم الى أخيها ، وهو مكى عجوز نحيل يعتبر نموذجا نمطيا للجيل القديم ، ذو وجه كوجه النسر ذو براثن كالحدأة وله ابتسامة ضبع ، وقد رمقنى بعيون غير ودودة عندما اعتبرت نفسى ضيفا فى بعض الغرف التى أعدها للاستئجار ، لكنه وعد أنه بعد عودتنا من عرفات سيخلى لى غرفة مخزن صغيرة . لذا فقد اضطررت للاكتفاء بالنوم فى غرفة الاستقبال الخاصة بالرجال فى الطابق الأرضى ، وتسمى مثل هذه الردهة فى مصر التختابوش Takhta-bush (١٦) . وعند الدخول تجد تجاه الشمال (أ) مصطبة كبيرة (ب) غرفة المخزن - مظلمة وقذرة (ج) أمتعة الحجاج وفى مواجهة المصطبة مصطلى (مكان ايقاد النار)

(١٥) النم Another nauseous draught. (المترجم)

(١٦) تتحول الصالة فى الطابق الأرضى الى دكان فى موسم الحج - لعرض البضائع خاصة ان كان المنزل واقعا فى منطقة مزدحمة .

لاعداد الشيشية وصنع القهوة (د) تحت اشراف أسرة هندية أفرادها
نحال الأبدان (هـ) وعلى الجانب ممر بلا أبواب يؤدي الى الحمام
(و) درج (بيز سلم - أو مساحة حول قاعدة سلم) .

وقد كومت نفسى بالكاد على المصطبة المغطاة بسجادة بعد أن
شغل الجزء الباقي منها - فجأة - بالحجاج الترك - أو الأتراك
السلاف (١٧) وهو الأقرب للصحة ، الذين يسكنون البيت والذين
استضافوا زوارهم . لقد كانوا ضخاما ، طوال الشعر ، غلاظ الأصوات ،
مربعى البنية ، ولم يلتفتوا الى البتة ، ورغم شعورى باقتحامهم المصطبة
فقد مددت ساقى بطريقة مزعجة تعبر عن الاستهتار ، وأخيرا وجه لى
أحدهم حديثا بالتركية فرددت عليه بهز رأسى . فترجموا لى سؤاله
للعربية فأجبت : « اننى من خراسان » وقد أدى قولى هذا الى حملقتهم
فى حملقات حجرية قاسية ، ورحت اسمع بكثرة اغ Ugh (بمعنى :
آخ !) : « أنت اذن شيعى ضار » وقد أدت عيني فيهم بابتسامة متكلفة
(مصطنعة) كابتساماتهم ، وزدت فى مد قدمى بمقدار ضئيل ورحت
أتناقش مع شيشتى (أنشغل عنهم بها) وعند مغادرتهم لفترة ، قام
الولد محمد - بناء على طلبى - برفع صندوق أدويتى الأخضر ووضعه
على المصطبة ، وقد أدى هذا الى وضع خد بينى وبينهم وأكد حقى فى
المكان الذى شغلته قبل الترك . وكان معظم هؤلاء الرجال يشكلون
مجموعة واحدة يرأسهم كولونيل نظام Nizam يسمونه البك .
وبذات معرفتى بهم غير ودية بشكل كاف ولكن بعد ذلك اتضح أنهم
ذوو قلوب طيبة ويحيون التعامل مع الآخرين (أشخاص اجتماعيين) ،
وذلك باستثناء أفراد قليلين منهم كانوا كالجزائر الانجليزى عندما ينامونه
أحد الغرباء الفقراء بالكلام - بمعنى اتسامهم بالنفور أو الغطاطة - انه
يحدث - غالبا - للرحالة ، كما لاحظت السيدة مالابروب Malaprop
- أن يستمتع بصحبة من أحسن ازاءهم بشئ من النفور فى البداية .
وفى المساء اتجهت مرة أخرى الى مركز الكرة الأرضية (١٨)

(١٧) النص : or rather slavo-turk وهذا يعنى أن المسلمين فى
شرق أوروبا كان يطلق عليهم الترك السلاف مما يؤكد أنهم ليسوا أتراكا مهاجرين وإنما
سلاف تحولوا للإسلام . وقد استخدم بيرتون هنا التعبير الدقيق المفرغ من المضامين
السياسة . انظر أيضا ترجمتنا لكتاب « العثمانيون فى أوروبا » تأليف بول كولز
(سلسلة الألف كتاب الثانى - ١٢٦) - (المترجم) .

(١٨) بدأ ابن حوقل دراسته الجغرافية بمكة لوجود بيت الله الحرام بها ، ولأنها
- أى مكة - أم القرى وأن الكعبة هى مركز الأرض . ومما يؤسف له أن ابن حوقل -
مثله مثل معظم الجغرافيين المسلمين لم يذكر عن مكة أكثر من ذلك - (بيرتون) .

(الكعبة المشرفة) (١٩) بصحبة الولد محمد ، ويتبعنى الشيخ نور الذى حمل الفانوس والسجادة لقد ذهبت للكعبة هذه المرة لأستمتع بجمال المكان ولأبتهج لساعات بعد نهار قضيته فى الرسميات والكلام والتوبة والندم (٢٠) .

ان القمر - الآن - يقترب من التمام يميل فوق حاجب جبل أبى قبيس مبدا الظلام حول المشهد بنوره الوقور ، ووسط النور القمري تجد الكعبة (المشرفة) مبنى كبيرا كتابوت .

« سوداء كأنما تظللها اجنحة الأرواح » (٢١) .

الا فى المواضع التى يطولها ضوء القمر ، فيبدو فيض نسوره كخيوط فضة فوق رخام أسود كأشد ما يكون السواد . ان القطر اليها يريح العين . اما المبانى والقباب الصغيرة - كالهياكل - والمحيط بها فقتلاشى امام هذا الهدف الواحد - المتوحد فى مظهره . انه بيت الله رب ابراهيم واسماعيل ونبياتهما . سامية هى ، معبرة بكل بلاغة وفصاحة عن الهوى والولوع بفكرة واحدة عظيمة ونبيلة هى التى بثت الحيوية فى الاسلام وبثت القوة والثبات فى نفوس اتباعه .

لقد كان الصحن المحيط بالكعبة مزدحما بالرجال والنساء والأطفال فى مجموعات ، كل مجموعة تتبع مطوفا . بعضهم يمشى برزانة ، وآخرون يجرون ، وطائفة أخرى وقف أفرادها يصلون جماعة . انه منظر يعج بالمتناقضات ، فهنا تمشى - بعزة - امرأة بدوية فى ثوبها الأسود الطويل الذى يشبه رداء الراهبات الصوفى الخشن ، وقد غطت وجهها بحجاب احمر فاتح لونه تطل منه عينان لامعتان حادتان . وهناك امرأة هندية بملامح شبه مغولية (تترية) ، شبه عارية بسيقانها النحيلة المغطاة بسروال ضيق - تهرول حول الكعبة (٢٢) . وبين الحين والآخر يدخل أناس حاملين جثة فى نعش فيطوفون بها حول الكعبة ، ويعاونهم فى حملها المسلمون الآخرون - كما هو متبع فى مثل هذه

(١٩) يميل بعض الباحثين الى أن مكة المكرمة - من الناحية الجغرافية - هى مركز الكرة الأرضية ، أو هى فى الوسط تماما بين الجانب المعمور من الأرض ، وعلى هذا الأساس يفهمون مصطلح « أم القرى » - (المترجم) .

(٢٠) يقصد الطواف والسعى والدعاء ... الخ) .

(٢١) النص الذى ساقه بيرتون هو :

Black as the wings which come print of ill over sepulture flings.

واكتفينا بما أوردها فى المتن فهو لا يبعد عن المعنى - (المترجم) .

(٢٢) استخدم بيرتون fane بمعنى الهيكل ، والمقصود ما ذكرناه -

(المترجم) .

الحالات • وقلة من الأتراك مصقولي الجلود يتكاسلون وينظرون ببرود وازدراء كما هي عاداتهم • وفي موضع واحد وقف ختموجار Khitmugar من كلكتا بعمامته المائلة وقد وضع يديه في خصره يتأمل المشهد غير المعتاد ليعرف ما سيفعله هؤلاء الناس • وفي مواضع أخرى بعض البؤساء يمدون أيديهم لأعلى حتى يمس كل جزء من أجسادهم الكعبة (المشرفة) ويتعلقون بأستار الكعبة ويكون ويتنهدون حتى ليظن المرء أن قلب الواحد منهم سينفطر •

وقد تحولت عيناى عن هذا المشهد غير العادى الى جبل أبى قبيس ، فمكة تمتد فى ذلك الاتجاه جزئيا فوق هذا التل المتجه (جبل أبى قبيس) وموقع مكة المكرمة يمكن مقارنته - عند النظر اليه من مسافة غير بعيدة - بحوض سباحة (٢٢) ، وبعض الكتاب يقارنونها بفلورنسا لكن بغير جمال ! • والى الجنوب منها يقع جبل جباد Jijad الأكبر وقد بنى أهل مكة فوق جانب منه ، وعلى قمته توجد قلعة تبدو على البعد أقل فائدة من القلاع الخيالية : لقد كان فيض من الضوء الشاحب يلمع فوق سطحها الحجرى • وأدنى منها كانت مآذن المسجد الحرام قد أصبحت أعمدة من فضة ، أما الأوراق فتتراقص فيها أضواء المنصاييح الزيتية محددة بذلك مناظر المسجد من كل الجهات بأفاق من ظلال •

وقبل الغروب قام الولد محمد لاطعام حمام المسجد الحرام ، وكان قد اشترى لهذا الغرض ملء كيس صغير من شعير ، وذهب حيث تتجمع هذه الحمام ، وهو الجزء من الصحن الذى يؤدى من قوس معزول الى الأروقة الشرقية • وأثناء النهار يرى المرء نسوة وأطفالا جالسين فى هذا المكان وأمامهم أكوام من حبوب فى مشنات أو سلال ويبيعون الكوم بمبلغ يسير (عملة نحاسية) • ويعتبر الحجاج الصالحون أن من واجبه تقديم وجبة ثرية لهذه الطيور البجلة •

ويؤكد الهنود بانديت Hindu Pandit أن شيفا Shiwa وزوجته من ساكنى مكة (المكرمة) ، متخذين أشكال الحمام (متقمصين الحمام) ويتخذان لهما اسمين هما : كابوت - اشوارا Kapot-Eshwara (الاله الحمامة) وكابوتيزى وكانت الحمامة شعارا للإمبراطورية الآشورية القديمة لأنه من المفترض أن سميراميس Semiramis قد صانتها حمامة • وحمام مكة

(٢٢) المقصود أنها منخفض تحيط به التلال أو الجبال - (المترجم) •

يشبه حمام البندقية ، اذ يعتبر حماما مقدسا ربما بسبب مرويات العرب عن حمامة نوح . ويذكر بعض المؤلفين أنه فى زمن الرسول محمد (عليه الصلاة والسلام) كان بين أصنام أهل مكة حمامة منحوتة من الخشب فوقها حمامة أخرى وقد أسقطها على (كرم الله وجهه) من فوق كتف النبی (صلى الله عليه وسلم) . وربما كانت هذه الحمامة المنحوتة من الخشب رمزا هندوسيا أو يهوديا أو مسيحيا . ويربط المسلمون الحمام بمناسبتين متعلقتين بالدين الاسلامي ، المناسبة الأولى ، عندما بدت حمامة وكأنها تهمس فى أذن النبی (صلى الله عليه وسلم) ، والمناسبة الثانية اثناء هجرة الرسول الى المدينة (المنورة) . وأكثر من هذا ففى كثير من البلاد يسمى الحمام « داعى الله » لأن حركاته اثناء الهديل تشبه السجود (٢٤) .

لقد دخلت الحمامة - غالبا وفى كل مكان - فى تاريخ الأديان وربما كان هذا هو الذى دفع السيد لاسيل Lascelles لتسميتها « بالطائر المقدس » مما جلب له سخرية أجدادنا . وفى مكة يسمون الحمام « حمام الكعبة » ولا يظهر هذا الحمام أبدا على سطح الكعبة . وقد يكون هذا معجزة صغرى ، الا أنني أميل للاعتقاد بوجود وسيلة أو أداة - موجودة على سطح الكعبة لمنع الحمام من الوقوف عليها . ويلاحظ صديقى السيد بكنل Bicknell أن هذه المعجزة - على أية حال - قد علقت (أو أُرجمت) الى حين فى الأعوام المتأخرة ، وقد اعتبر كثيرون ذلك نذير نحس بتوقع فترة طويلة سيقرب فيها الكفرة من الأرض المقدسة .

وقد رأيت فى وقت متأخر مساء زنجيا فى حالة هياج دينى مؤقت ويقولون أن الشخص فى هذه الحال يكون « ملبوس » ويدل مظهره على أنه تكرر (من الذكارة أو التكرارة) ، وقد كان رجلا حسن التقاطيع قوى البنية وحاول عدد من الناس الإمساك به ، فمد ذراعيه بوحشية ازاء من أمسكه وراح يصدر صرخات حادة هكذا : لى لى لى لى بشكل متتابع Le Le Le Le وعند الإمساك به ترنج بجسده وجرك رأسه من جانب الى جانب كالفيل الهائج المقيد بسلاسل وراح يصدر انات وناوهمات شديدة صادرة من الأعماق . ويظهر الأفارقة

(٢٤) سمعت من جدتى لأمى أنه يسمى الداعى الى الله لأنه يقول عند هديله : « وحدوا ربكوا ٠٠٠ » وكانت تقسم أن الكلمات والحروف واضحة فى أذانها « وح دواااا ربكوا » وربما كان تشابه نغم هديل الحمام مع مقاطع هذه العبارة هو السبب فى تسمية الحمام داعى الله ، وهو الأقرب للمنطق - (المترجم) .

- بشكل استثنائي - عرضة لهذه الظواهر العصبية التي يعتبرها الجيلة والخياليون دلالة على تقمص الأرواح لهم أو دلالة على أنهم ملبوسون demoniacal possession . فأما أن تركيبهم أكثر حساسية وقابلية للتأثر ، وأما - وهو الأقرب للصحة - أن الصعوبات والحرمان والمتاعب خلال رحلتهم التي عبروا فيها الفيافي والقفار والبحار قد ألهمت خيالهم فجعلهم على حافة الجنون المؤقت . وغالباً ما يراهم المرء وهم ساجدون في الصحن المحيط بالكعبة أو متعلقين بأستارها أو يفركون جباههم في الحجر الأسود وأحجار الكعبة وهم يبكون بمرارة ويهتفون باسم الجلالة وغير ذلك من العبارات الدينية .

لقد مكثت تلك الليلة في الحرم المكي حتى الساعة الثانية صباحاً لأرى ما إذا كان سيخلو من الزحام ، لكن صباح اليوم كان سيشهد النفرة إلى عرفات لذا فقد أمضى كثيرون ساعات الليل هنا (في الحرم) . لقد جلست جماعات كثيرة من الحجاج فوق سجاجيد أحضروها معهم ، وأمامهم مصابيحهم وراحوا يتجاذبون أطراف الحديث ويصلون ويتأملون الكعبة . وكانت الأروقة غاصة بالتجار الذين راحوا يعرضون بضاعتهم التي تخدم أغراضاً دينية كالأمشاط والسواك والمسابيح . وقبل الساعة العاشرة مساء لم أجد فرصة لأداء الركعتين المعتادتين في الحجر (بكسر الحاء وتسكين الجيم) (قبر اسماعيل) . وبعد انتظار طويل صبور خطوت - أخيراً - إلى المكان الشاغر في الوقت الذي اندفع فيه حاج آخر لشغله إلا أن الولد محمد حاصره - فوراً - بمساعدتي وعلمه كيف ينتظر رغم صيحاته وعراكه . وحتى منتصف الليل جلسنا نثرثر مع الطوفين الذين أتوا لعرض خدماتهم . ولم أكن أطيق ثيابهم القذرة الرثة ، وقد قيل لي أنهم أثناء الحج . عندما تكون الملابس الغالية عرضة للتلف - فانهم يلبسون الملابس القديمة لكنهم يعودون فيلبسون أفضل ما لديهم لاستقبال شهر محرم عندما يكون معظم الحجاج قد غادروا مكة (المكرمة) . وسرعان ما نام رفيقائي بعد أن أنهكهما التعب ، فسرت إلى الكعبة بغية قطع قطعة من كسوتها ، لكن عيوننا كثيرة كانت تصدق . وفي هذا الموسم من العام تكون الكسوة بالية لكثرة لمس أصابع الحجاج لها وبسبب هبوب الرياح ، ويعتبر اختلاس قطعة من هذه الأستار المبجلة مجرد زلة أو اثم طفيف ، لكن لأن المسؤولين في المسجد يجمعون النقود من بيعها فانهم - بالتأكيد - سيعاقبون من يكتشفونه بالنبوت . وقد أعطاني الولد محمد قطعة من الكسوة قبل مغادرتي مكة . ولا تزال الصدرية المعدة من كسوة الكعبة تعد لباساً ملائماً للمقاتل تحصنه وتمنع إصابته بجروح ، وتعد هدية مناسبة للأمراء ويحاول المسلمون بشكل عام الحصول على قصاصة من

هذه الكسوة لاستخدامها كحريط يضعونه فى المصحف لتبيان المواضع التى وصلوا عندها فى القراءة ، ولأغراض أخرى شبيهة ، وعلى أية حال فقد لاحت الفرصة فحصلت على ما أريد .

وأخيرا بدأ النوم يداعب جفونى بشدة فأيقظت رفيقى ، فسارا معى متناقلين يرنحهما النوم - فى حارة طويلة من باب الزيادة الى مسكننا فى الشامية . لقد وضح لنا نور القمر المتألق طريقنا فلم نشك من ظلمة شوارع مكة وصعوبة السير فيها بعكس ما سمعناه من المسافرين . وبدت مكة آمنة أيضا فليس ثمة عسس والناس ينامون فى كل مكان وأمام دورهم المشرعة أبوابها . وبمجرد وصولنا للبيت تأهبنا لانتهاز فرصة النوم لساعات قلائل فوق المصطبة التى ما كنت لأنام عليها لولا فرط تعبى وانهاكى ، فهى موضع غير مريح للنوم .

الفصل الثامن والعشرون

شعائر يوم التروية

(اليوم الأول)

وصف الطريق الى عرفات - بركة الشامي - القيقعان والخندمة
- ثنية قضاع - العقارب - عن شعيرة الرجم - منى - مناقشة
الامور الاعجازية فى منى - مسجد الخيف - وادى محسر - نساء
بعض البدو يضارعن رجال البدو شراسة وعدوانية - الاخشيان -
جبل الرحمة - الموت على الطريق - اسرة هندية بائسة تحج -
واجب الحكومة البريطانية ازاء الحجاج الهنود الفقراء - آدم وحواء
فى عرفات - الحشاشون .

فى الساعة العاشرة صباح الثامن من ذى الحجة سنة ١٢٦٩ هـ
(الموافق ليوم الأحد ١٢ سبتمبر ١٨٥٣) ركبنا فى الشقذوف ونحن
بملايس الاحرام . وكنا قد اوقفنا الشيخ مسعود عند الباب منذ الفجر ،
وكان الرجل تواقا للبدء فى المسير قبل أن يصبح الطريق خطرا بسبب
الزحام الذى تسببه القافلتان الشامية والمصرية . ويرجع سبب تأخرنا
للسلوك الاستبدادى للولد محمد الذى اصر على ترك ابن أخيه وعدم
ذهابه معنا ، ومضى وقت طويل قبل أن يرضخ الولد محمد لطلبات
الصغير ، فاجلست الطفل المسكين الذى كان يصرخ بمرارة - فى
الشقذوف بيننا ، وأخيرا بدأنا المسير .

لقد سلكننا الطريق الذى تدخل منه القوافل الى مكة (المكرمة) ،
وكان الطريق مغطى بالحجاج بملايس احرامهم الببيض ، وكان بعضهم
يشق طريقه سيرا على الاقدام وكان آخرون راكبين ، لكن الرجال
جميعهم حفاة ورءوسهم عارية . ومعظم حجاج الطبقات الأكثر ثراء
يركبون حميرا . لقد كان المنظر - كما هى العادة - يمثل أحد المناظر
الغاصة بالتناقض : بدو يركبون جمالا سريعة وأصحاب المقام الرفيع

من الترك يركبون خيولا جميلة ، ومتسولون بائسون يحفز منظرهم الرسامين على رسم لوحات غريبة ، وعساكر Nizam منظرهم لا يسر ، وغير قليل من المشاحنات مختلطة بأصوات طلقات نارية وأصوات التلبية Talbiyat . والحيوانات النافقة متناثرة على الأرض ، وبعضها مكوم في بركة جافة هي بركة الشامي التي تجعل أى بدوى يسد أنفه . وهنا - ناحية إيامنا - يجد المرء أفقر الحجاج الذين لم يستطيعوا تدبير مسكن - قد أقام كل واحد منهم عريشا ، ونصب خيمة مهترئة . ولما اجتزنا حى المعابدة (بفتح الميم والعين وتسكين الباء أو كسرهما) فى واد بين الامتدادين القاحلين : القيقعان Kayka'an والخندمه Khandamah - استدرنا تجاه الشمال الشرقى ، مخلفين وراءنا - عن شمائلنا بعض الكثنات للعسكر الترك بالإضافة للعسكر الزنوج النظاميين المتمركزين فى هذا المكان ، وتشكل ثنية قضاع (ق) kuda'a خلفية المنظر . ثم ، تقدمنا حوالى ثلاثة آلاف خطوة فوق أرض مرتفعة فمررنا بقمة جبل النور المخروطية ودخلنا سهلا تطلق عليه أسماء كثيرة . وليس به من شئ يذكر سوى جدران قليلة مطلية باللون الأبيض تحيط بمواضع للصلاة ، وعدد من الأحواض الحجرية ، وبعض الآبار ما زالت بحالة جيدة ، وأخرى مهدمة . وعلى أية حال فقد كانت جميعها (الآبار) جافة وكان بائعو الماء يتزاحمون على جانب الطريق . وتظهر القطع الجرانيتية والحصى كأنها حشائش ، وتحت كل حجر كبير كنت ترى عقريا صغيرا راسعا ذيله فوق ظهره - يفر خوفا ممن هددوا حجره ، وكان الشيخ مسعود مبتهجا وهو يرينى هذا المنظر . وفى الساعة الحادية عشرة صباحا صعدنا المدرج Mudarraaj الذى يبلغ عرضه ثلاثين ياردة وقد مررنا بدون مشاكل لأننا كنا سابقين القافلتين فوق العقبة Akabah ، كما عبرنا المدخل الضيق المحاط بالتلال الى حوض (منخفض) حصبائى حيث منى (بكسر الميم) Muna .

ومننى ، وينطقها العامة بضم الميم ، موضع له أهمية دينية . ومن الأمور الاعجازية فى منى - والتي لا تزال باقية : أن الحصى (الجمرات) انتهى يلقيها الحجاج على الشيطان ، ترجعها الملائكة مرة أخرى الى مكانها الأصلي (من حيث جاء بها) ، وأثناء فترة الأيام الثلاثة لتجفيف اللحم (القديد) لا تستطيع الحيوانات المفترسة والطيور أن تغزو المكان ، وأخيرا فان الذباب لا يستقر فوق الأطعمة المعروضة

بوفرة وافرة فى الأسواق (١) . وأثناء فترة الحج يقدم أصحاب المنازل منازلهم مقابل مبالغ باهظة لتصحيح سرقا عالمية للتجار المسلمين ، أما فى بقية العام فإن هذه المساكن - فى الغالب الأعم - تظل مهجورة ، وبسبب هذا تشيع خرافة شعبية عن الرجم أو قذف الشيطان . أنها تقع على بعد حوالى ثلاثة أميال من مكة (المكرمة) ، انها قرية طويلة وضيقة وغير منتظمة ، وتتكون من مساكن طينية أو حجرية من طابق أو طابقين ، مصممة وفقا للنسق العربى الشائع . ولما اجتزنا شارعا ضيقا مررنا بالشيطان الأكبر الى الشمال منا ، وسأصفه لكم فى صفحات تالية . وبعد توقف دام ربع ساعة قضيناها فى تدخين الشيشة وشرب القهوة وصلنا لباحة واسعة حيث يوجد مسجد الخيف Al-khayf وهنا - وفقا لما يقوله بعض العرب - تمدد آدم (عليه السلام) فكانت رأسه عند نهاية جدار طويل ، وقدماه عند بدايته ، أما القبة فتغطى منطقة سرته . وكانت الاستعدادات تجرى فى هذه الباحة على قدم وساق لعرض الألعاب النارية ، وقد لاحظت - خاصة - حراقة a fireship يدل منظرها بوضوح - على أنها من اسطانبول ، وبعد أن مررنا بشوارع مكة وصلنا لبطن المحسر Batn al-Muhassir (المقصود وادى محسر المشهور) عند بداية منحدر يؤدى الى المزدلفة حيث يهبط الطريق فى وادى عرفات (مسيل عرفات Arafat torrent) .

وعند الظهر وصلنا للمزدلفة التى تسمى أيضا المشعر الحرام . وتعرف فى الاسلام بأنها « منذنة بلا مسجد » بينما مسجد نمرة (بفتح النون وكسر الميم) Nimrah يعتبر « مسجدا بلا منذنة » . وفى منتصف الطريق بين منى (بكسر الميم) وعرفات - بمعنى أنهما على بعد حوالى ثلاثة أميال تقريبا من منى ، وعلى بعد ثلاثة أميال تقريبا من عرفات .

وقد فاجأتنا قافلة الحج الشامى هنا ، بينما كنا متوقفين لأداء صلاة الظهر . لقد كان المشهد عظيما . فالمحمل الذى كان عاريا أصبح يتلألأ فى ضوء الشمس باللون الأخضر والذهب . وحول هذا الموكب المتحرك من الحجاج ذوى الأردية البيض تزاحم البدو رجالا ونساء . يركبون جميعا جمالا سريعة وكثيرون منهم مسلحون تسليحا كاملا ، وكانت ألبستهم الجوخية ترفرف فى الهواء ، ويغطى كل منهم وجهه بلثام ، لذا كان من الصعب أن يتبين المرء أن كان المثلث رجلا أم امرأة ، وكانوا يحثون جمالهم على الاسراع . وهؤلاء الناس - كما قيل لى -

(١) من الواضح أن هذه مبالغات وخرافات يناقضها الواقع الفعلى -

(المترجم) .

غالبا ما يأتون الى عرفات بحثا عن غرمائهم للثأر منهم وهم (اى الغرماء) غير مهيين للدفاع . ولا شئ أكثر اثما فى الاسلام من فعلهم هذا - انه انتهاك لحرمه الأماكن المقدسة . والسلوك السائد بين هؤلاء البدو يؤكد ان رباطهم بالدين واهن ضعيف . ونساؤهم لا يقللن عن رجالهم قسوة وفضاظة ، فكثيرات منهن - كما لاحظت - يضارعن الرجال فى طريقة الركوب المستهتره ، وكن يضربن بعصيهن كل الدواب التى يصادفنها فى الطريق .

وقد وصلنا الى ممر ضيق يسمى الأخشبين ، بعد مسير صوب الشرق فى مسيل عرفات (وادى عرفات) استمر قرابة نصف الساعة . وهنا - اى فى الأخشبين - تجد النتوءات الصخرية تحف الممر من الجانبين فلا يزيد عرضه عن حوالى مائة خطوة ، وبعد أن تجاوزنا الأخشبين وهو بمثابة مكان متسع فى السهل ، وصلنا الى البازان Bazan وبعد نصف ساعة أخرى أصبحنا فى العلمين Alamayn وهى عمودان مطليان باللون الأبيض محاطان بأبراج ، وهما يحدان حدود سهل عرفات ، وتتجلى جموع الحجيج هنا متزاحمة فوق الجبل المبارك (جبل الرحمة) وتشكل السماء الزرقاء خلفية للمنظر ، وتعالى لبيك اللهم لبيك « لمتلا المكان » . والى الخلف منا ، ناحية اليمين يوجد مبنى بسيط ، انه مسجد نمرة . ثم غيرنا اتجاهنا الشرقى لنتجه ناحية الشمال وبدأنا نشق طريقنا بين مدينة من الخيام تجمعت بالقرب من السفح الجنوبى لعرفات ، وأخيرا فى حوالى الساعة الثالثة عصرا وجدنا مكانا غير مشغول بالقرب من المطبخ Matbakh الذى كان فيما مضى ملحقا بقصر الشريف ، لكنه أصبح الآن مخربا لم يبق منه الا هياكل عقود قليلة .

وتقع عرفات على طريق الطائف الى الشرق من مكة ، ويستغرق الوصول اليها حوالى ست ساعات من المسير البطيء جدا ، اذ المسافة لا تزيد عن اثنى عشر ميلا . وقد وصلنا هناك فى وقت اقل لكن جمالنا المنهكة تساقطت على الأرض الواحد اثر الآخر فى الثلث الأخير من الطريق . أما البشر فقد كانت معاناتهم اشد . وقد رأيت بين منى وعرفات ما لا يقل عن خمسة رجال سقطوا ميتين على الطريق . وكان الواحد منهم اذا أحس بدنو أجله وقرب ساعة احتضاره انسحب متخلفا عن ركبته ليسلم الروح الى بارئها حيث السعادة الأبدية . ويبين المشهد كم هو أمر يسير أن تموت فى هذه المناطق ، ففجأة يترنح الانسان ، ويسقط كما لو أصيب بطلق نارى ، وبعد تشنجات لا تطول ، يصبح بلا حراك

ككتلة رخام • وعندئذ ترفع جثته بعناية ، وتدفن - بغير عناية (فى مساء يوم وفاته فى أى مكان شاغر بين الجموع المزدحمة والمعسكرة فى سهل عرفات •

لقد عقد الولد محمد - الذى طالما أثار عنادى - العزم على أن يكون له شأن فى هذه المناسبة ، فلكى يزداد عدد مجموعتنا ، قام بدعوة عمر أفندى - الذى قابلناه صدفة فى شوارع مكة المكرمة - لينضم إلينا ، فلما فشل فى تحقيق هذا الهدف اصطحب معه اثنين من أبناء عمه ، وهما شابان سمينان يبلغ عمر أولهما ست عشرة سنة ، أما الثانى ففى السابعة عشرة من عمره ، كما اصطحب معه خدم أمه وهم أربعة هنود : رجل عجوز وزوجته - وهى امرأة فى منتصف العمر وغير جميلة ، وابنهما وهو ولد حاد يتحدث العربية بطلاقة ، وصديق للأسرة وهو شاب قوى فى حوالى الثلاثين من عمره لقد كانوا من البنجاب • وقد كان رب الأسرة ينعم بحياة آمنة طيبة فى بلده عندما رأى فى منامه ذات ليلة حضرة على Hazrat Ali فى ثياب خضراء راكباً نلولة - على الأقل وفقاً لما يقوله الراوى - وصرخ فيه (حضرة على) بصوت حاسم : « الى متى بقاؤك فى هذا العالم ؟ والى متى تتمسك بهذه الحياة ؟ » ومن هذه اللحظة لم يعرف السلام ، وكيف يجده وقد تردد عليه (فى منامه) حضرة على ؟ وكيف يجده وضميريه يحثه على الاستجابة لنداء حضرة على ، فوجد أن الحياة فى وطنه لا تحتل ، فباع كل ما يملك ولما بلغ ما معه عشرين جنيهاً اتخذ سبيله للديار المقدسة ، ووصل جدة وليس فى جيبه الا روبيات قليلة ، ووصل مكة (المكرمة) حيث كان كل شيء نادراً باهظ الثمن ، وكان من المحال فى هذه الظروف أن يتصدق عليه أحد ، وكان من الممكن أن يموت جوعاً اذا لم يستقبله صديق قديم • فاتخذتهم أم الولد محمد خدماً عندها وأتاحت لهم (الزوجة والابن) المأوى ، ورطلاً من الأرض لكل واحد منهم ، لكنها لم تقدم لهم نقوداً مهما قلت • فكان عليهم أن يدبروا بأنفسهم الكرم والبصل اللازمين للأرز • وحتى هؤلاء البؤساء كانوا قلقين فى انتظار أن تتاح لهم الفرصة لزيارة المدينة (المنورة) لاعتقادهم أن حجهم لا يتم الا بزيارتها • لذا فهم سيلتمسون طريقهم إليها عبر الصحراء المربعة وبدوها - تصوروا ! رجل عجوز وطفل وامرأة ! فما هى فرصة عودتهم سالمين لوطنهم ؟ واعتقد أن أمثال هؤلاء البؤساء كثيرون . إذ يدفعهم حماسهم الدينى - بجنون - لشد الرحال سراعاً الى الديار المقدسة • اننى أوصى بشدة أن تضع حكومتنا فى الهند ذلك فى اعتبارها وأطلب - بشدة - منها أن تتدخل ، فليس من حاكم شرقى يفرق بين رعاياه كما تفعل • اننا لن نجنى سوى فقدان القوى المنتجة ، فلهذه الهجرة كثير من العواقب

الوخيمة لامبراطوريتنا (امبراطورية الرأى) ، فهي تؤدى الى خروج أفواج من الساخطين الذين يترعرعون فى أحضان التعصب ، كما أنها – أى هذه الهجرة – تعلم الأمم الأخرى احتقار حكمنا وتكشف ما وصل اليه حال الهند التى كانت ثرية من فقر ، ونحن (الانجليز) الذين نقبض بأيدينا على مقدرات الهند منعا وعطاء .

وليس ثمة مسلم – فيما عدا أتباع المذهب المالكى – يربط بين فريضة الحج وضرورة توفر مبلغ كاف يعينه على سفره ويؤمن حياة أسرته ، فكل الذين يستقلون السفن من موانئ الهند المختلفة قاصدين الديار المقدسة لابد من اجبارهم على اثبات قدرتهم المالية على الوفاء بتكاليف الحج قبل السماح لهم بالمغادرة . وعند وصولهم الى جدة لابد من ابراز أوراقهم لمقر نائب القنصل البريطانى حتى يتلقوا المساعدة عند الضرورة . كما يجب على نائب القنصل فى جدة – أيضا – أن يكون مستعدا لمساعدة حاجنا الهنود .

وقد أخبرنى السيد كول Cole – عندما أثرت هذه المسألة – أنه برغم موت الكثيرين – فى الطرقات – من المجاعة ، الا انه كان غير قادر على تقديم العون لهم . فالطرقات المؤدية الى مكة ، والطرقات العامة فيها مليئة بالمتسولين الهنود البائسين ذوى الأجساد الهزيلة والأصوات المعبرة عن الأتئين ، والذين يتسمون بكل سمات البؤس .

وهناك ما لا يقل عن ألف وخمسمائة هندي فى مكة وجدة بالإضافة الى سبعمائة أو ثمانمائة فى اليمن . ومثل هذه الأعداد فى حاجة الى قنصل (٢) . اننا نضع أنفسنا – باختيارنا – فى وضع دونى ، عندما يكون تمثيلنا فى الحجاز لا يتعدى نائب قنصل فى الوقت الذى ترسل القوى الأخرى مسئولا على درجة رفيعة لتمثيلها . ورغم أن شريف مكة عمل لفترة على تأسيس وكالة للمسلمين a Moslem agent فى الأراضى المقدسة مع أوامر بابلاغ القنصل فى جدة ، الا أن اقتراحه سرعان ما فشل .

وقد نقل الولد محمد – بمساعدة الهنود – السجاجيد العجمية الجميلة التى كان يغطى بها الشقدوف ، ونصب الخيمة وفرش الأرض بالسجاد وهيا مجلسا من حواش (مخدات) من حرير وساتان فى الداخل ، وجعل فى الوسط شبقات (جمع شبق بضم الباء والقاف)

(٢) هناك قنصل لجدة الآن (١٨٧٩) لكنه حتى عهد قريب كان بدون راتب .

(بيرتون) .

جديدة وشيشا (جمع شيشة) لأمعة براقعة • وفى المدخل وضعنا آنية نحاسية ضخمة لاشعال النار فيها ، ومعها دلالات (جمع دلة بتشديد اللام) القهوة ، وكأنها تغنى أغانى الترحيب بالضيوف • وأمامنا الشقايف ورتبنا أشياءنا الأخرى لتكون فى نظام بديع • وقد أصر الولد محمد على أن أغير ردائى (قطعة القماش القطنية البيضاء التى يضعها الحاج على نصفه العلوى) الذى اتسخ وأبدلنى به قطعة قماش كشميرية غالية كان قد تركها معه منذ بضع سنين ابن ملك دلهى • لقد اعترانى هاجس أن أبهة اللباس هذه ستفقدى معنى خطبة عرفات فى اليوم التالى •

وكانت عرفات تسمى قديما جبل الال (بكسر الألف) Ilal « جبل الابتهاال Wrestling in prayer » أما الآن فتسمى جبل الرحمة وهو كتلة من الجرانيت الخشن تشقق الى كتل كبيرة تتخللها شجيرات شوك ذابلة • ويرتفع جبل الرحمة بشكل حاد مائة وثمانين قدما أو مائتى قدم فوق سهل حصبائى منخفض - وثمة جدار منخفض عند سفحه الجنوبى يبين حده • ويفصله بطن عرنه Aranah (بفتح العين والراء) وهو واد رملى - عن نتوءات (أنوف) تلال الطائف وليس هناك منظر أجدر بريشة الفنان من القمم الزرقاء القائمة خلف سهل منخفض أصفر وأجرد تنتشر عليه خيام الحجاج • وإلى الشمال معسكر منظم للحراس لحماية الحجاج غير المسلمين • وإلى ناحية الشرق يوجد معسكر الشريف والمحمل البهيج وسراقات ذوى المكانة بحليها المذهبة ، أما الى الجنوب وإلى الغرب فتتكاثر خيام العامة على شكل دوائر • وبعد حسابات كثيرة ، قدرت العدد بما لا يقل عن ٥٠.٠٠٠ من كل الأعمار ذكورا وإناثا •

وقد قدرهم على بك (العباسى) سنة ١٨٠٧ : ٨٣.٠٠٠ حاج أما بوركهارت فقد درهم بحوالى ٧٠.٠٠٠ سنة ١٨١٤ ، وقد قل تقديرى لهم سنة ١٨٥٣ ليصبح ٥٠.٠٠٠ ، وقد قل عددهم سنة ١٨٥٤ الى ٢٥.٠٠٠ لأسباب سياسية • ومن بين هذا العدد ١٠.٠٠٠ على الأقل من أهل مكة فكل من يستطيع مغادرتها يغادرها بالفعل فى موسم الحج • ولدى العرب خرافة مؤداها أن عدد الحجاج فى عرفات لا يمكن احصاؤه وإذا قل عدد الموجودين فوق جبل الرحمة عن ٦٠.٠٠٠ لسماع الخطبة

(٣) عرفات - كما يعرف كل مسلم - ليست جبل الرحمة فحسب ، وإنما يمثل هذا الجبل معلما مهما بها ، وعرفات هى أيضا السهل المحيط بالجبل - (المترجم) •

فإن الملائكة تنزل من السماء لاكمال العدد . وحتى فى هذا العام فإن أصدقائى العرب أعلنوا أن ١٥٠٠٠ ر. ١٥٠٠ ملك (روح) حضرت عرفات فى أشكال آدمية . والجدير بالذكر أن العجوز الطيب برتراند دى لا بروكير Bertrand de la Brocquire عندما أعلن أن القافلة السنوية من دمشق الى المدينة المنورة يجب ألا يقل عددها أبدا عن ٧٠٠٠ ر. ٧٠٠٠ وأن حدث وقل العدد عن هذا أرسل الله ملائكته لاكمال العدد - فإنه ربما كان يخلط الأمور ، وأن المقصود من كلماته حشود الحجاج فى عرفات .

ويرجع اسم عرفات وما به من قداسة الى حكاية معروفة جيدا . فعندما خرج آدم وحواء من الجنة لأكلهما القمح مما أدى لفقدتهما نقاءهما الأسمى - أهبطهما الله الى الأرض ، وأهبط الحية فى أصبهان Ispahan والطاوس فى كابول والشيطان فى بلبايس Bilbays (قال آخر فى سمنان Semnan وسستان Seistan) وحواء فى عرفات ، وآدم فى سيلان ، وأصر آدم على البحث عن زوجته فبدأ رحلته ، وبسبب رحلته هذه أخذت أرضنا مظهرها المرقش المتباين نحيثما وضع أبونا آدم قدمه . التى كانت كبيرة - ظهرت بعد ذلك مدينة (فى موضع قدمه) وبين طرفى خطوته (بين موضع قدمه المتأخرة وموضع قدمه المتأخرة) ظهرت بعد ذلك دولة Country ، وبعد تجوال دام عدة سنين وصل الى جبل الرحمة حيث كانت أم البشر تردد اسمه باستمرار وبذلك « عرف » آدم موضعها ، ومن هذه « المعرفة أو التعارف » اتخذ المكان اسمه « عرفات » . وفوق قمة جبل الرحمة تلقى آدم توجيهها من الملك جبريل بإنشاء المدعى (بتشديد الدال) Muda'a أو موضع الدعاء . وقد عاش آدم وحواء حتى ماتا بين هذا الموضع ومسجد نمره . ويذكر آخرون أن آدم وحواء بعد أن التقيا فى عرفات عادا للمهند وظلا يحجان مكة (المكرمة) فى موسم الحج كل عام وطوال أربع وأربعين سنة .

وقد هبطت من جبل الرحمة لتأمل تجمعات الخيام . لقد كان الطريق الرئيسى بين الخيام والسقائف والأكواخ والدكاكين يتلأل بأنوار المصابيح ، وكانت الأسواق عامرة بالناس مترعة بالأطعمة الشهية التى ترضى أذواق الشرقيين . وتواجه العين بعض المناظر الشاذة . فكثير من الحجاج خاصة العسكر ، كانوا لا يلبسون ملابس الاحرام ، وفى بعض المواضع كان ثمة ألبانى يترنح فى الطريق نصف مخمور يدفع بمرفقيه العابرين المسالمين ويشاكس بشراسة طالبا الدخول فى عراك ، وفى موضع آخر خيمة ضخمة ذات ضوء غير قوى ، تضم ثلة من المصريين بطرايشهم الحمراء وعمائمهم البيضاء وزعابيطهم

السوداء يدخنون الحشيش المحظور ويحدثون جلبة وضوضاء . وكان
ثمة شجار متتابع وفوضى هائلة ، فثمة رجال كثيرون فقدوا رفاقهم
فراحوا ينادون بصوت عال للوصول لزوجاتهم أو أصدقائهم فاختلف
صياحهم بأصوات المبلين (القائلين لبيك اللهم لبيك) . واثار اندهاشى
أن أسماء النساء تتردد مباشرة دون كناية عنها ، وأن الزوج ينادى
على زوجته غير الحاضرة باسمها وبصوت عال مما يتناقض بشكل حاد
مع العادات المتبعة فى العالم الاسلامى . لكن الولد محمد وضح لى
ذلك بالتفصيل ، فالنساء المصريات وغيرهن من النساء اللواتي ، عندما
تكون الواحدة منهن غير قادرة على الانضمام للحج ، فانها تدفع لأحد
معارفها كى يصيح باسمها عند جبل الرحمة فى عرفات ، وقد لا تدفع
له وانما تتوسل اليه أن يفعل ، وذلك لأن ترديد اسمها عند جبل الرحمة
يضمن لها أن تكون فى المكان ذاته فى العام التالى ، لذلك فان أجواء
عرفات تعج بنداءات غير محتشمة : يا فاطمة ! يا زينب ! يا خيزران !
Khayz'ran . واللصوص أيضا منتشرون ، فقد وجدنا أثناء عودتنا
لخيمنتنا زحاما بالقرب منها ، فقد حاصرت امرأة لصا وهو يهم بالسرقة ،
وقد وجدت المرأة لديها شجاعة كافية للقبض على لحيته قبل أن يسارع
الرجال بمساعدتها وكنا مضطرين للدفاع عن موقع خيمنتنا بالقوة ازاء
مجموعة من حفارى القبور الذين شرعوا فى دفن كومة صغيرة من الجثث
على بعد ياردة أو ياردين من خيمنتنا .

وتجلت لى فجأة فكرة عن الفرق بين مراعاة البدو للنظافة من
ناحية ، وتصرفات أهل المدن بين خيام الحجاج من ناحية أخرى . وقد
جلس مسعود المسكين ممسكا بأنفه وهو فى حالة غثيان واشمئزاز لا حد
لهما مما جعل أهل مكة يسخرون منه . فواسيته بمقطوعات شعرية
شهيرة قالتها ميسونه زوجة معاوية بن أبى سفيان البدوية الجميلة .
تلك الأبيات التى ما أن يسمعها البدوى حتى يغمره الفرح والسرور :

لبيت تخفق الأرياح فيه أحب الى من قصر نمير

..... الخ

فابتهج الرجل العجوز (مسعود) وريت على كتفى ، وقال :
« حقا هذا صحيح يا أبو الشوارب ، سأجعلك ترى مضارب قبيلتى
هذا العام ! » .

وأخيرا أقبل الليل فالقينا بأنفسنا على السجاجيد لكن دون أن

ننام ، فبالقرب منا - لسوء حظنا - كان رجل عجوز كثير الدعاء
والصلاة ، وقد بدأ إبتهالاته في ساعة متأخرة ولم ينهاها الا في الفجر .
لقد ذكرنى بجارى فى كلية التثليث Trinity College فى اكسفورد
- قبل التخرج - الذى كان ينطلق فى قراءة ايخلوس Aeshylus
فى الساعة الثانية صباحا . وفى بعض الأحيان كانت ترانيمه توقظ
النائم وكانت أذنى تسمع رجع صدى صوته الممل ، واذا ما أحس بوخز
الضمير (الذنوب التى ارتكبها) رفع صوته فجأة بشكل حاد ثلاثة أضعاف
ما كان عليه ، واستمر فى الدعاء بشكل مزعج . وفى جوف الليل سمعت
تصفيقا بالأيدي مصحوبا بأغان عربية مرحة وتعاليت ضحكات المصريين
شاربى الحشيش ، ولم يكن حراس معسكرات الحجاج ساهرين .

الفصل التاسع والعشرون

شعائر يوم عرفات (اليوم الثانى)

انطلاق المدافع - مسجد الصخرة - السلفيون فوق جبل الرحمة -
موضع وقوف الرسول صلى الله عليه وسلم لالقاء خطبة عرفات -
مصلى آدم - موضع المحمل المصرى والمحمل الشامى - موكب
الشرىف - خطبة عرفة (الوقفة) - نظرات الحب فى عرفات -
الدفع من عرفات - صحبة الزمزمى على العجوز - متابعة الجميلة -
وصف الزحام - المشاعر الحارة - خطبة الوقفة - جميلة فى عرفات -
رسم جبل الرحمة - الأخشبيين - تصادم صفوف الجمال - جمع
الحصوات (الجمرات) - مسجد المزدلفة - وصف الكعبة من
الدخل - وصف الكسوة - الكذب بالنسبة للشرقى - مصنع
الخرنقش -

فى صباح اليوم التاسع من ذى الحجة (الثلاثاء ، ١٣ سبتمبر)
بشرنا صوت قذيفة مدفع عالية بطول يوم عرفات ، ونبهنا للنهوض
استعدادا لأداء شعائر هذا اليوم المهم .

فبعد أن توضحنا وصلينا صحبت الولد محمدا لرؤية المواضع ذوات
القداسة فوق جبل الرحمة . ففى البداية وصلنا لمكان فى موضع مرتفع
ناحية الجنوب الشرقى على مدى مائة ياردة من الجبل (القل) . ويسمى
هذا الموضع مسجد الصخرة (١) ، نسبة الى صخرتين مكورتين
(جلمودين) وقف الرسول عليهما لترديد التلبية . وليس ثمة شئ
هنا سوى سور حجرى منخفض مطلق باللون الأبيض يحيط بمساحة
صغيرة مقسومة لقسمين أحدهما للرجال والآخر للنساء وبه محراب .
ولما دخلنا ، وجدنا زحاما من الحجاج والحراس الذين يقدمون
- بمقابل - حصرا وسجاجيد ، وبعد أن صلينا ركعتين وتلونا ادعية
طويلة عند المحراب زلفنا الى القسم الداخلى وجلسنا على الصخرة ،
ورحنا نردد التلبية .

(١) اسماء على بك مسجد الرحمة - (بيرقون) .

ثم شققنا طريقنا عبر كثير من العوائق من خيام وصخور وصعدنا درجات عريضة وعرة تنتهى الى الوجه الجنوبى للمتل الصخرى (جبل الرحمة) ، ورغم هذه الساعة الباكرة فقد كان مزدحما بالحجاج خاصة من البدو والسلفيين (الوهابيين) الذين كانوا قد استعدوا بحجز أماكن مميزة لهم لسماع خطبة عرفات . وسرعان ما رفعوا رايثهم الخضراء فوق قمة الجبل بالقرب من مصلى آدم . ويصر العرب الأكثر بداوة أن « الوقوف » يجب أن يكون فوق الجبل ، أما الأكثر تمدينا فلا يفعلون ذلك اذ يقولون ان عرفة كلها موقف وعرفة هى السهل الممتد بين العلمين Alamayn . ووفقا لما ذكره على بك فانه لا يسمح لأتباع مذهب الامام مالك بالوقوف فوق جبل الرحمة ، وأثناء صعودى لمنتصف الجبل تقريبا، أحصيت ستا وستين درجة (كدرجات السلم) ولاحظت أن الدرجات بدأت تصبح أضيق وأعلى . وقد حاصر المتسولون - بالمحاج - الحجاج ، وكادوا يحولون بيننا وبين دخول الموضع الثانى الذى يشبه الموضع الأول الا أنه من قسم واحد وليس به جلاميد صخرية ، وهذا الموضع هو الذى تعود محمد خاتم الأنبياء أن يلقى فيه خطبه لأتباعه ، لذا فان خطيب هذه الأيام يقف فى الموضع ذاته - أسوة برسول الله - راكبا جملا - ليلقى خطبة عرفات . وفى هذا الموضع صلينا - أيضا - ركعتين ودفعنا مبلغا يسيرا للحارس .

ثم صعدنا بصعوبة متزايدة لقمة جبل الرحمة حيث وصلنا لمنبسط (منصة) ضخم مجصص ، به محراب ونصب عمودى كالسلة من حجارة جرانيتية ، ويبدو المبنى واضحا على البعد وهو مطل على الطلاء الأبيض ، ويسمى مقام آدم أو مدعى سيدنا آدم ، وهنا أدبنا الشعائر المعتادة وسط زحام الحجاج ، وبعد ذلك رحنا نهبط التل الصغير (جبل الرحمة) .

وبالقرب من سهل عرفات رأينا موضع وقوف المحمل المصرى والمحمل الشامى أثناء القاء خطبة عرفات ، ولما هبطنا السور الذى يحدد حدود عرفات من فوق درجات حجرية عالية ووعدة وضيقة . وجدنا ناحية اليمين ينبوع الماء الذى يمد عرفات بالماء ، وهو ينبجس من الصخور وماؤه نقى تماما كماء الحجاز بشكل عام .

وقد أدى تجوالنا فى هذه المواضع الى تأخرنا فقد وصلنا السهل بعد الساعة التاسعة . لقد كان الجميع فى حالة استئثار ، فالمدافع تطلق قذائفها دون توقف ، وراكبو الخيول وراكبو الجمال يتحركون هنا وهناك دون هدف واضح ، وحتى النساء والأطفال يقفون ويسيرون وهم فى غاية الاضطراب ، لما وصلنا لخيمتنا لم أكن سعيدا برؤية زائر

جديدة وهو على بن يس الزمزمى ، وكنت قد تعرفت عليه قبل ذلك . لقد كان على بن يس فقد بغله فراح يتجول بحثا عن يكون عنده ، ولسوء حظى ، فانه قد التقى بمجموعتنا . لقد كان على بن يس محبا للاستطلاع فضوليا بدرجة كبيرة تجعلنى لا أحب صحبته . وكان فى هذه المناسبة قلقا غير مرتاح وجعلنا أيضا قلقين غير مرتاحين . وكان يكفى أن يتسبب فى بعض البقع على السجاد وأن يسقط بعض جمرات الشيعة على الأرض حتى واجهناه بانتقاد عنيف عصبى ، وكأنا ننتظر هذه المناسبة بفارغ صبر ، وكنا فى هذا كالعانس البريطانية على استعداد لاثارة المشاكل فى أية مناسبة .

لقد افطرننا فى هذا اليوم متأخرين لأننا لم نستطيع تناول طعامنا مرة أخرى الا عند حلول الليل . وبعد الظهر توضع بعضنا واستحم بعضنا الآخر استعدادا « للوقوف » بعرفة . ومن الظهر فصاعدا بدأت تتزايد أصوات تلبية الحشود ودعواتها ، وبدأت جموع الحجاج تحتشد فى كل اتجاه .

وأعلنت طلقة ثانية من المدفع (فى حوالى الساعة الثالثة والربع) اقتراب موعد صلاة العصر ، وسرعان ما سمعنا « النوبة » Naubat أو صوت الجوقة المصاحبة لموكب الشريف وهو يشق طريقه للتل (جبل الرحمة) . ولحسن الحظ فان خيمتى كانت قريبة من الطريق لذا فقد تابعت المشهد بشكل كامل دون ازعاج .

سقى البداية قادت جماعة من حرس الشريف من حاملى القضبان بتوسيع الطريق باجراءات بسيطة غير معقدة - وهو ما يحدث عادة فى مثل هذه المناسبات ، وتبعهم خيالة الصحراء حاملين رماحا طوالا وأخرى قصارا ، وخلفهم مباشرة خيول الشريف التى ركزت ناظرى عليها . لقد كانت هذه الخيول جميعا من سلالات ممتازة وكان أحدها نجديا ذا لون بنى غامق وبه شامات بيض ، وقد اعتبرته نموذجا كاملا للحصان العربى الأصيل . لقد كانت أحجامها صغيرة وبدأت جميعا - بشكل واضح من سلالات خيل الشمال .

واقبلت فرقة من العبيد السود مترجلة يحمل كل واحد منها بندقية ضخمة قديمة الطراز ، بعد انطلاق قذيفة مدفع ، وسرعان ما ظهر الشريف راكبا فى مقدمة أسرته وحاشيته مصحوبا بثلاث رايات خضر ورايتين حمراوين . وكان الشريف يرتدى ملابس الاحرام البسيطة عارى الرأس راكبا بغلة ، وليس من شئ يدل على مكانته سوى مظلة كبيرة مشغولة بخيوط ذهبية وأخرى خضراء يظله بها أحد العبيد .

وخلف الشريف وأسرته وحاشيته توجد كتبية أخرى من البدو من راكبي الخيول وراكبي الجمال . وخلف الموكب ظهرت الخيام التي لا تكاد ترى مدخلها وقواعدها من فرط الزحام ، وخلفية المشهد تل جرانيتي مغطى بالحجاج ذوى الملابس البيض يصيحون : « لبيك اللهم لبيك » ويحركون أطراف أرديتهم بشدة فوق رؤوسهم .

وتقدم موكب الشريف بتؤدة ووقار نحو التل (جبل الرحمة) وساعة العصر تماما كان الحملان Mahmils قد اتخذوا موقعيهما جنبا الى جنب فوق منصة حجرية عند المنحدر المنخفض . وكان يمكن تمييز الحمل الدمشقي بأنه أضيق وأكثر زينة . واتخذ الشريف مع حاشيته مكانا يرتفع عن مكان المحملين بقليل عند سماع خطبة الوقفة ، وتزاحم الحجاج عند سفح جبل الرحمة ، وشقت تلبية البدو والسلفيين (الوهابيين) الصمت الوقور ، وتوقف الحجاج عن تحريك أرديتهم فوق رؤوسهم ، اشارة الى أن الخطيب قد بدأ خطبته (خطبة الوقفة) . ومن خيمتى كان يمكننى تمييز هيئة رجل عجوز راكبا فوق جملة (يقصد الخطيب) ولكن المسافة الكبيرة بينى وبينه حالت بينى وسماعه . فكيف تأتيني عظامه وأنا فى خيمتى . ان اعترافا موجزا سيفسر هذا انهم سيحلوننى من خطاياى ، فهم يؤمنون بما ذكره سبنسر Spenser فى اشعاره :

اذ تصبح كل روح أكثر شفافية ونقاء

ويغمرها نور قدسى باهر

فيسعى كل جسد جميل ليضمها اليه .

وقد أتت المشكلة من « الجسد الجميل » ، فقد كنت قد خبأت فى رداى قصاصة ورق وقلم رصاص قاصدا أن أسجل الخطوط العريضة لهذه الخطبة التي لا تتكرر كثيرا . لكن - لسوء حظى - فقد كان الشال الكشميري الأحمر على كتفى ، وكان بالقرب منا ثلة من المكيات من الجنس اللطيف وكان من الواضح أنهم ينتمين لاحدى الطبقات الراقية ، وقد لاحظت احدا من أكثر من مرة . لقد كانت فتاة طويلة فى حوالى الثامنة عشرة من عمرها ، ذات ملامح متسقة وبشرتها شاحبة لكنها ناعمة وواضحة ، وحاجباها متناسقان ، أما عيناها فهما الأكثر جمالا ، لقد كان تكوينها كله فى الغاية من التناسق والجمال . لم يكن رأسها مطروحا للخلف ولم تكن رقبتها متصلبة ولا كتفاهما مسطحتين ، ولم تكن أصابع قدميها معوجة ، أو بارزة للخارج . الحق أقول - لم يكن بها أى

عيب من تلك العيوب التي تشوب العناصر المتبريرة • لقد كانت مثالا لما يحبه العرب في المرأة : ناعمة مصقولة لينة مسترخية كما ينبغي أن تكون الأنثى وكانت لسوء الحظ تلبس يشمك Yashmak من موسلين شفاف أحاطت به وجهها ، وذلك بدلا من الحجاب المعتاد • وقد وقفت الى جوار وصيفتها أو أمها وهي امرأة عجوز كيسة جدا • لقد ألفت فلرتلا Flirtilla نظرة اعجاب على شالي الكشميري فاستجبت للفتتها بالنظر في عينيها ، فرفعت غطاء رأسها بوصة أو بوصتين للخلف - كحركة دلال معتادة - فكشفت عن خصلة شعر فاحمة السواد تكال رأسا بيضيا جميلا • وقد كافأتنى على اعجابي الواضح بها بأن أزاحت اليشمك جزئيا عن وجهها ، فظهر من الموسلين قم وغمازتان وذقن مستديرة - كم هو سعيد هذا القماش (الموسلين) لأنه يضم كل هذا التناقض والجمال • ولما رأيت أن رفاقي منشغلون قررت التقدم في أرض خطرة فرفعت يدي الى جبهتي فابتسمت ابتسامة هادئة واستدارت بعيدا • لقد كان الحاج في حالة انجذاب صوفي •

لقد انتهى الآن نصف الخطبة ، وقررت أن أبقى في سهل عرفات لأرى ما ستفعله فلرتلا (الفتاة الجميلة التي أشار إليها آنفا) فبفضل هذا الشال الكشميري وصلت معها لمرحلة تفاهم طيبة • لكن المرحلة التالية خيبت آمالي ففي هذا المساء خلع الحجاج أرديتهم ، وبالتالي فقد استعاد الولد محمد هذا الشال الأحمر الذي كان قد أعطاني إياه •

وخطبة الوقفة تستغرق دائما حوالى ثلاث ساعات اذ تستمر حتى المغرب • وفي البداية يتحدث الخطيب ، والجميع في صمت عميق ، ثم يرفع صوته ويؤمن الحاضرون ثم يكثر من التلبية دون فاصل بين تلبية وأخرى ، وأخيرا تصل الى مسامعنا صيحات مطالبة بالرحمة والتطهر من الآثام والبكاء والصراخ ، وحتى رفاقي بدوا متأثرين فعلى العجوز راح يعتصر عينيه ويذرف الدموع ، ولم تكن دموعه في هذا الموقف مرتبطة بالدولارات ، فأية كمية منها لم تكن قادرة على انزال الدموع من عينيه حتى لو كانت دموع التماسيح • أما الولد محمد فقد غطى وجهه بطرف رداءه - بحكمة • وسرعان ما استنفذ الانفعال طاقات الحجاج فشرعوا يهبطون جبل الرحمة في جماعات صغيرة أما الذين كانوا على السهل فشرعوا في هدم خيامهم وتحميل جمالهم رغم أن الخطبة لم تنته اذ مازال باقيا على نهايتها ساعة على الأقل • وفي هذه المناسبة - يسعى الجميع - على أية حال - ليكونوا السابقين في النفرة (الخروج) من عرفات طالما أن البدو هم أشد الناس حبا لهذه النفرة •

ورغم أننا بذلنا كل جهدنا إلا أن دوابنا لم تكن جاهزة للحركة قبل الغروب عندما أعطى الخطيب أمره بالنفرة (الانصراف) (٢) فاختلف الحابل بالنابل وماجت عرفات كالبحر يعلوه الزبد الأبيض ، وراح الجميع يجيئون ويروحون ويريك كل واحد طريق الآخر ، وراح الجميع يهبطون من فوق جبل الرحمة ملبين : « لبيك اللهم لبيك » فى هدير شديد ، واتخذ الجميع طريقهم صوب منى . لقد رأيت المشهد الذى يدل على هذه المرحلة من المشاعر المقدسة وعرفت لم اتخذ اسم « الدفع من عرفات Dafa'a min Arafat ، فكل انسان يحث دابته بالشدة واللين ، ولما حل الغروب نزعت أوتاد الخيام من السهل واندفعت الشقاديذ ، وأسرع السائرون على الأقدام وانتشرت الجمال ونشبت بعض المارك بالعصى والأسلحة الأخرى ، وتجد هنا امرأة ، وتجد هناك طفلا ، وترى دابة هائمة ضاعت من صاحبها . وباختصار فان المشهد يمثل اضطرابا مشوشا غامضا .

وقد أصابنى الاشمئزاز لأن الرجل العجوز على أصر على مصاحبتى . فقد أعطى بغله الجديد للولد محمد وأمره أن يراعيه ويهتم به ، وركب هو معى فى الشقدوف . وكنت قد حدثت الشيخ مسعود بدولار أن يتابع المكبة الجميلة ، وأردت أن أرسم جبل الرحمة (التل المقدس) . وبدأ الشيخ على يصدر أوامر للجمال ، بينما أنا أوجهه توجيهها معاكسا . وتوقف الجمل ، ولما حدثته على المسير عمل الشيخ على ايقافه . وفى هذه الأثناء بدأ الوجه الجميل الذى أهدانى ابتسامة يتلاشى مبتعدا شيئا فشيئا ، فاعترانى غضب ولم أعد أصفى للأصوات المنبعثة من حركة الجمال عند عبورها طريقنا ، فقد فقدت المنظر الجميل . ثم بدأنا نتقدم مرة أخرى ، ومرة أخرى أيضا فشلت محاولتى رسم الطريق والجبل بسبب عيني هذا الرجل الزمزمى (الشيخ على) الشعبانيتين الصغيرتين . وبعد دقائق قليلة من الغضب أبحث فيها عن فرصة تتيح لى تحقيق هدفى قال الرجل العجوز : « يا أفندى ، اجلس هادئا ، فئمة خطر هنا » فرحت اتطلع حولى كشخص يعانى من مس أو به مغص ، فصاح الشيخ : « أفندى ! ماذا تفعل ؟ انك ستعرضنا للموت » فأجبت باندفاع عنيف : « والله ! ان كل المتاعب سببها أنت . ضع لحيثك فى الفتحة الأخرى ، والله سيسهل كل الأمور ، فأدار سبب قلقي وجهه بمجرد تلقيه الأمر ناحية رأس الجمل ، وقد رسمت جبل الرحمة بسرعة جعلت الرسم غير متقن ، بالنظر من ثقب فى مؤخرة الشقدوف ، وعندما توقفنا فى المحطة التالية .

(٢) كتبها بيرتون اسراف Israf وهو خطأ واضح ولعله مطبعى .

وعند الأخشبيين (بتسكين الخاء وفتح الشين) تصادم صفان من الجمال المحملة بالشقادي فحدث التصادم صوتا أشد من صوت تلاقي سيلين . لقد كان الظلام قد حل بالفعل ولم يكن أى شخص يدرى ما يفعل . لقد انطلقت المدافع وتردد صداها طولا وعرضا بين التلال وأحدث هذا فزعا بين جماعات النساء والأطفال ، وفى الوقت نفسه فان الموسيقى العسكرية قد ارتفعت من آلات الجنود (النظام) ولم يكن صوت الموسيقى محببا لدى الحجاج ، فسماع التلبية أفضل ، وكذلك سماع عبارة « عيدكم مبارك » .

وبعد مرورنا من الأخشبيين ، اتسع الطريق ، واستعاد على العجوز روحه المعنوية العالية ، كما استعاد رغبتة فى الكلام بعد أن كان أثناء حدوث التصادم صامتا مضطربا . وكان معنى استعادة رغبتة فى الحديث ، بداية تعكير مزاجى مرة أخرى . ومرة أخرى قررت أن أكون مزعجا مثله ، فتعجبت قائلا : « ان عيني صارت صفراء من الجوع » وحاصرت أنية مليئة باللحم المتبل كان الرجل العجوز قد ادخرها للعشاء ورحت أكل منها بنهم دون مقدمات ، وكنت على استعداد للانفجار ضاحكا عند سماع أية غمغمة أو تدمير يصدر - فى ظلام الشقدوف - من الشيخ العجوز . لقد مكثنا فى الطريق - على الأقل - ثلاث ساعات قبل الوصول الى المزدلفة ، ولما كنا متعبين فقد قررنا قضاء الليل هناك . لقد كان المسجد يتلأأ بالضوء ولكن رفاقى الجوعى اهتموا بالأكل والنوم أكثر من اهتمامهم بالعبادة ، وبينما كنا ننصب الخيام ، راح الهنود يعدون طعامنا وقهوتنا ويعمرون الشيش ويفرشون السجاجيد . وقبل النوم جمع كل واحد منا سبع حصوات (جمرات) كل حصوة (جمرة) فى حجم حبة الفول الصغيرة . ثم استلقينا لنستريح خوفا من الاجهاد ، لقد استلقينا جميعا ما عدا الولد محمد الذى سبقنا ليدير مكانا لخيامنا فى منى . أما على العجوز ، فعند تأجير بغلته للولد محمد ، فرض عليه ترتيبات مملة عن مكان مقابله ووقت مقابله ولم أملك نفسى فابتسمت لسذاجة هذه الترتيبات . لقد قضينا الليل بهدوء وسلام . فصفوف الجمال كانت تمر بنا كل عشر دقائق واستمر صياح العابرين حتى قرب الفجر . ولا بد أن يقضى الحجاج ليلة فى مسجد المزدلفة ، ولكن الأمتعة تكون غير آمنة عند تركها خارج المسجد لذلك فان الحجاج يقضون الليلة فوق صناديقهم تماما كما فعلت ، وكما كان يحدث أيام بوركهارت .

الفصل الثالثون

يوم النحر

عبور بطن محسر الى منى - صلاة العيد فى المزدلفة - قرية
المزدلفة - ارتباك على الزمزمى العجوز - رمى الجمرات - الزحام
المميت - ذكريات الرحالة على بك العباسى - الراحة فى سقيفة
الحلاق - تعاويذ الحلاق - الوصول لبیت الولد محمد بمكة -
الاستعداد لدخول الكعبة - وصف الكعبة المشرفة من الداخل -
مفتاح الكعبة - فتى بنى شيبه - لماذا لا يفضل الحجاج دخول
الكعبة - تاريخ كسوة الكعبة - الكسوة الحالية - صنع الكسوة
فى الخرنفش بالقاهرة - العودة لبیت الولد محمد -

فى فجر عيد القربان (العاشر من ذى الحجة الموافق ١٤ سبتمبر)
نبهنا صوت المدفع الا نضيع وقتنا ، فنهضنا سريعا وعبرنا بطن محسر
Batn Muhassir الى منى . وقد فانتنا صلاة العيد التى صلتها
جموع المسلمين فى المزدلفة ، وكان رفيقى متلهفا للوصول الى مكة
(المكرمة) وكأنه لم يسمع عن مناسك الحج . وفى حوالى الساعة
الثامنة دخلنا قرية المزدلفة وبحثنا عن الولد محمد عبثا . وكان على
العجوز مرتبكا محتارا ، فقد قال ان الحجاج الأتراك ذوى الأصول
الراقية يتوقعون وصوله فان ضاعت بغلته تأخر عن حاجه وقد
لا يستطيع الوصول لمكة حيث ينتظرونه . فكيف السبيل لحل المشكلة ؟
وقد بدأت أستعيد ذكرياتى فى عقلى المنهك ولما فشلت فى الانهماك فيها
رحت أسلى نفسى بتأمل العالم من شقدوفى تاركا توجيه الجمل للزمزمى
(الشيخ على العجوز) الذى راح يوقف الجمل طورا ويحثة على المسير
طورا آخر وراح مرة يظن أنه شاهد الولد محمدا ، ومرة أخرى يظن
أنه وجد خيمتنا ، ومرة يعتزم إيقاف الجمل والانتظار ومرة أخرى
يعتريه نوبة هياج عصبى تجعله نصف مجنون فيزعج الشيخ مسعود
- وهو رجل ممتاز - باستفسارات لا جدوى منها . وأخيرا - لحسن
الحظ - وجدنا واحدا من أبناء عمومة الولد محمد الذى قادنا الى

موضع يسمى حوش العظام Hosh Al-Uzam فى الجزء الجنوبى من بطن منى Muna Batin عند سفح جبل Sabir (؟) وفى هذا الموضع نصبنا خيامنا وأنعشنا أنفسنا وانتظرنا عودة الغائب . أما لى العجوز فنه بعد أن فشل فى تعكير مزاجى واخراجى عن طورى ، حاول أن يفعل كما يفعل مرافقو الفلاسفة غالبا - بإثارة شجار معى ، لكنه لم يجد سببا معقولا لذلك فراح يردد الفاظا على شاكلة « آه » هم - بكسر الهاء Hem وراح يتسود الولد محمد تلميحا قائلا « والله ! » وعلى أية حال ، فعندما ظهر الولد محمد - غار قلب على بن يس ، فدفعه الولد محمد ، فركب بغلته مبتعدا وهو يتمتع - بلا شك - بلعنات صبيها علينا ، وراح يضرب ضلوع البغل - بشراسة - بعقبى قدميه .

لقد كان الولد محمد قد تأخر لأنه - كما قال - وجد صعوبة فى تدبير حمير . وكان علينا الآن أن نركب لأداء شعيرة رمى الجمرات (الحصوات) السبع التى يتحتم أن تكون من المزدلفة كما يجب أن نغسلها بسبعة أمواه (جمع ماء) وأن نصرها (نربط عليها) فى ملابس الاحرام ، وكان مقصدنا الأول هو مدخل الطرف الغربى لخط طويل يكون قرية منى . وقد وجدنا حشودا حاشدة فى الطريق الضيق المواجه لما يسميه العامة الشيطان الكبير (جمره العقبة) وهو اسم يميز هذا العمود عن العمودين الآخرين : الوسطى (فى وسط منى) والأولى فى الطرف الشرقى لمنى .

« والشيطان الكبير » هو نتوء صغير لبناء غير متقن يبلغ ارتفاعه حوالى ثمانية أقدام ويبلغ عرضه حوالى قدمين ونصف عند مدخل القادم من مكة الى منى . وقد ازدحم الحجاج ازدحاما خطيرا لأن شعيرة الرمي يجب أن تتم فى اليوم الأول فيما بين شروق الشمس وغروبها . وعلى أحد جانبي الطريق الذى لا يبلغ عرضه أربعين قدما يوجد صف من دكاكين الحلاقين خاصة . أما فى جانب الطريق الآخر فيوجد الجدار غير المصقول المواجه لعمود الرجم ، والمساحات الضيقة بين محلات الحلاقين والجدار مزدحمة عن آخرها بالحجاج الذين يكافح كل واحد منهم للوصول لأقرب مكان لرمز الشيطان ليتمكن من رجمه . لقد بدا لى أنه يمكن لشخص ما أن يجرى فوق رءوس هؤلاء الحجاج المزدحمين . وبين جموع الحجاج الحاشدة كان يوجد خيالة يركبون أفراسا شرسة تصهل . أما البدو ففوق جمالهم الشرسة وعلية القوم فوق بغالهم وحميرهم والمرافقون لهم يسيرون على

الأقدام فيشقون طريقهم وسط الزحام بالعنف والضرب . وكنت قد قرأت أن على بك العباسي قد هنا نفسه لتمكنه من الهروب من هذا المكان بعد أن أصيب بجرحين فقط في ساقه اليسرى ، وقد كنت قد زودت نفسي في الوقت المناسب بخنجر خبأته في ثياب احرامى ولم يكن هذا الاستعداد بدون فائدة . فما كاد حمارى يدخل الزحام حتى أطاح به جمل ووجدت نفسى تحت بطن الحمار الذى راح يرفس بقدميه وينهق فأسرت بالمهرب من هذا المكان متجنباً أن أوطأ بالأقدام اذا استخدمت الخنجر استخداماً حكيماً . ويؤكد بعض المسافرين المسلمين - دلالة على قداسة هذا المكان - أن أياً من المسلمين لم يقتل هنا ، وأكد لى أهل مكة أن الحوادث هنا نادرة بكل المقاييس .

وسرعان ما شق الولد محمد طريقه خارج الزحام بأثف دام ، فجلسنا معا على دكة (مركز) أمام سقيفة الحلاق ، وأجبرتنا هذه المحنة على التذرع بالصبر حتى تتاح لنا فرصة أخرى . ولما وجدنا فسحة بين الزحام اقتربنا حتى صرنا على بعد خمسة أذرع من المكان وأمسك كل واحد منا بالحصوة تلو الحصوة فى يده اليمنى بين ابهامه وسبابته ورمينا بها على العمود قائلين : بسم الله والله أكبر . اللهم اخز الشيطان » وبعد ذلك نهل ونثنى على الله تعالى . ولما رمينا الحصوات السبع عدنا ودخلنا سقيفة الحلاق وجلسنا على احدى المصاطب الطينية . لقد حان وقت خلع ملابس الاحرام والعودة الى الاحلال Ihlal أى الوضع المعتاد فى الحياة الاسلامية ، وحلق الحلاق رءوسنا وبعد أن هذب لحانا وقص أظافرنا ، طلب منا أن نكرر هذه الكلمات : « اننى أتحلل من احرامى أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاجعل لى مقابل كل شعرة نورا وطهارة وأجرا ، بسم الله والله أكبر » وبعد أن أنهى الحلاق عمله قال لنا بأدب « نعيما » والاجابة التقليدية منا هى « أنعم الله عليك » . ولم يكن معنا ملابس غير ملابس الاحرام ، لكن هذا لم يمنعنا من التوسع فى استخدام ملابس الاحرام بتغطية رءوسنا كما استخدمنا صنادل لحماية أقدامنا من حرارة الشمس ، وأصبح يمكننا الآن أن نبرم شواربنا ونلاطف لحانا - بأمان .

وبعد أن استرحنا زهاء ساعة فى سقيفة الحلاق التى كانت باردة نسبياً رغم زحام الزبائن داخلها - اذا قارناها بالحرارة المحرقة فى الطريق ، وقد امتطينا حميرنا فى اتجاه مكة المكرمة فى الساعة الحادية عشرة .

والعودة من منى الى مكة تسمى النفرة (بفتح النون وتسكين الفاء) ولم تخب جهودنا فى جعل حميرنا تتخذ أقصى سرعة لها فلم

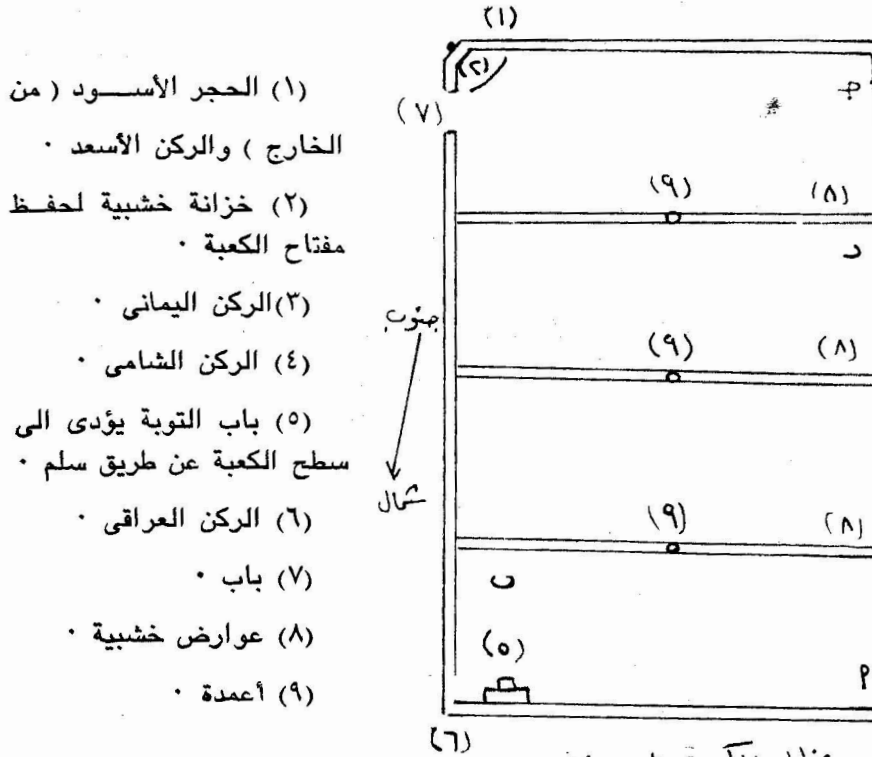
نتوقف الا مرات قليلة لانعاش أنفسنا بشرب الماء • ولم يكن فى المشاهد أمامنا ما هو جدير بالملاحظة ، فطريقنا عند خروجنا من مكة هو طريقنا فى العودة لها • وفى غضون نصف ساعة تقريبا دخلنا مكة بعد أن مررنا بذلك الموضع المعروف تقليديا باسم « بطن قريش Batn Kuraysh » وكان مزدحما بالناس وعدنا لبيت الولد محمد لنستحم ونستعد لزيارة الكعبة المشرفة •

وبعد وصولنا لبيت الولد محمد بوقت قصير ، كان الولد فى حالة استنفار : « هيا يا أفندى ، قم يا أفندى ! البس ملابسك واتبعنى ! » فالكعبة المشرفة رغم أنها مفتوحة الا أنها ستظل فارغة لفترة وبعد ذلك ستزدحم ونحن نريد تجنب الزحام • لقد كانت ثياب احرامى الذى لم أكن قد غيرته قد صمم بشكل أنيق ، كما كان له طابع هندى الى حد ما ، فاندفعت أنا والولد محمد للكعبة المشرفة دون اضاءة وقت •

لقد كان الزحام حول الكعبة شديدا ولم أكن راغبا فى الوقوف عارى الرأس حافى القدمين فى شمس ظهيرة شهر سبتمبر • فكانت صرخة قوية « وسع الطريق للحاج الذى سيدخل بيت الله » جعلت المحلقين يوسعون الطريق ، فرفعنى مكيان سمينان يقفان عند باب الكعبة بأذرعهما ، بينما جذبنى ثالث من أعلى الى داخل الكعبة ، وعند المنخل بادرنى بالكلام بعض الموظفين وهم مكبون ذور منظر مظلم ، كان من بينهم شاب من بنى شيبه (١) هو أكثرهم سوادا وأكثرهم دماثة • وأمسك شاب بنى شيبه هذا فى يده مفتاح الكعبة الضخم المصنوع من الفضة المطلية بالذهب ، وسرعان ما جلس على مقعد خشبى فى ركن الكعبة وسألنى بشكل رسمى عن اسمى وجنسيتى وغير ذلك ، وكانت اجاباتى مرضية فسمح للولد محمد بالطواف بى داخل الكعبة وترتيل الدعوات ، ولا أنكر أن النظر الى جدران الكعبة من الداخل حيث لا نوافذ ، وزحام المسلمين المتحمسين فى الساحة المحيطة بالكعبة ، والاحساس بالرهبة داخل الكعبة ، وحقيقة أمرى ، كل ذلك جعلنى أحس أننى قد وقعت فى فخ • وعلى أية حال فان ذلك لم يحل بينى وبين ملاحظة المنظر بعناية أثناء دعواتنا الطويلة وصلواتنا ، فقامت برسم مخطط سريع بالقلم الرصاص فوق ملابس احرامى البيضاء •

(١) وصفهم بيرتون فى فقرة بأنهم :

لا شيء أكثر بساطة مما هو موجود داخل الكعبة المشرفة ذلك
 المبنى الشهير . فالأرضية المستوية مع سطح الأرض مكونة من بلاطات
 جميلة ومتباينة من رخام ملون ، ومعظمها على أية حال بيضاء ،
 وتبدو - أى هذه البلاطات - على هيئة مربعات . أما الجدران فمن المادة
 ذاتها ، وإن كانت أشكال الرخامات غير متناسقة ، وكثير منها محفور
 عليه كتابات قديمة وأخرى ذات طابع حديث ، والأجزاء العلوية من الجدران
 وكذلك السقف - جميعها مغطى بالدمقس الأحمر الضارب للرمادي
 الجميل المزين بالزهور الذهبية ، وقد جعلت على ارتفاع حوالى ستة
 أقدام حتى لا تمحوها لمسات أيدي الحجاج ، ولا يستحب المسلمون النظر
 الى سقف الكعبة من الداخل ويرتكز السقف المسطح على ثلاث عوارض
 متصالبة يمكن رؤيتها من خلال الأقمشة والستائر الملونة التى تكسو
 السقف . وترتكز هذه العوارض المتصالبة على الجدار الشرقى والجدار



منظر الكعبة من الداخل

- ١ - أول موضع للصلاة بعد الدخول
- ب - الموضع الثانى للصلاة والدعاء
- ج - الموضع الثالث للصلاة والدعاء
- د - الموضع الرابع للصلاة والدعاء

الغربي للكعبة ، وترتكز العوارض المتصالبة فى الوسط على ثلاثة أعمدة يبلغ قطرها حوالى عشرين بوصة وهى مكسوة بأخشاب الصبر المنحوت والمزخرف . ويوجد فى الركن العراقى باب منخفض يقال له باب التوبة يؤدى الى ممر ضيق فى نهايته سلم يستخدمه الخدم فى الصعود للسقف ولا يفتح الا للخدم لأغراض العمل (النظافة أو الإصلاح مثلا) أما الركن « الأسود » أو « الأسعد » فله سقف مسطح على شكل ربع دائرة ، ويمثل هذا الجزء خزانة لحفظ مفتاح الكعبة ، والباب والخزانة من خشب الصبر . وثمة شرائط معدنية لم أثبتنها وقد علق بها مصابيح كثيرة يقال انها من الذهب ، وهذه الشرائط المعدنية ممتدة بين الأعمدة على ارتفاع حوالى تسعة أقدام من الأرضية .

ورغم أنه لم يكن بالكعبة الا عدد محدود من المسؤولين الذين يعملون على تهيئتها استعدادا لدخول الحجاج ، الا أن الجدران الخالية من النوافذ والباب المسدود ، جعلت جو الكعبة من الداخل خانقا جدا (٢) فتساقط العرق منى بشدة ورحلت أتصور - بفزع - ماذا يكون عليه الحال لو امتلأت بجموع الحجاج يحتشدون داخلها متدافعين متحمسين . لقد صليت ركعتين وأتبعتهما بدعوات طويلة عند كل من الركن الشامى (الغربى) والركن العراقى (الشمالى) والركن اليمانى (الجنوبى) وأخيرا فى مواجهة الثلث الجنوبى للجدار الخلفى . ولما أنهيت كل ذلك عدت الى الباب حيث مكان الدفع . وأخبرنى الولد محمد أن اجمالى التكاليف سبعة دولارات ، وفى الوقت نفسه فقد أطلق العنان لصوته مادحا كرم محتدى وأهمية مكانتى ، وذكر أننى حاج هندى ، ولا زال أهل مكة يظنون أن الحاج الهندى (المهرجا الحاج) من جنس مصنوع من الذهب ، لذلك فقد رفضوا قبيل الدولارات السبعة عند تقديمها متوقعين ما هو أكثر بما يتناسب مع مقامى ، لكننى كنت حريصا على ألا أحضر معى أكثر من ثمانية دولارات ، لقد حاصرني ستة أشخاص وأمطرونى بالأسئلة ولم يكن أمامى من طريق الا التظاهر بالفباء والتظاهر بعدم فهمى اللغة وسرعان ما تفتق عقل شاب بنى شيبية عن حيلة فسحب مفتاح الكعبة وأخرجه جزئيا من جرابه الحريري الأخضر المزركش بالذهب ، وفرك العقدة الذهبية فوق عيني ، لزيادة نورهما . ورددت على هذه النعمة الالهية باضافة دولار - هو آخر ما معى - للدولارات السبعة السابقة ، فتلقاه الشريف (يقصد فتى بنى شيبية) بنظرة فاقدة للأمل ،

— worse than the Piombi of Venice.

(٢) نص العبارة :

وأثرنا ما أوردناه فى المتن - (المترجم)

ولم يقدم يده لى كى أقبليها ، وكان هذا من حسن حظى ، وبدأ الحضور الآخرون يطلبون الاكراميات فرددت على طلباتهم بفتح كيس نقودى الفارغ . وعندما رفعنى اثنان من أهل مكة الأشداء لانزالى من الباب توقعت أن أدفع لهما مقابل ذلك فواعدتهما للالتقاء بى فى بيت الولد محمد ، وقد وافقا على ذلك مغمغمين . ولما خلصت من هذه المشاكل حيانى رفاقى بشدة قائلين : « والله يا أفندى ، لقد فزت ، فغيرك ربما ترك جلده خلفه » .

وكل الحجاج لا يدخلون جوف الكعبة ، وكثيرون لا يودون الدخول لأسباب دينية ، فعمر أفندى - على سبيل المثال - الذى لم يترك موسم حج الا حج ، لم ير أبدا جوف الكعبة (٢) . فالذين قدر لهم أن تطأ أقدامهم أرض الكعبة المبجلة لا ينبغي لهم - من بين أمور أخرى - أن يسيروا مرة أخرى حفاة القدمين ، وألا يرفعوا النار بأصابعهم وألا يكذبوا . والرجال الواعون حقا لا يستطيعون الالتزام بلبس الصنادل واستخدام الملقاط لرفع جمرات النار ، وتحرى الصدق دائما . وعلى هذا النحو فكر توماس Thomas عندما قدم التفاحة التى ستجعل له لسانا غير قادر على الكذب .

لقد قال توماس حقا وصدقا :

لسانى هو كيانى

فان القزمت الصدق الكامل

فكيف أجرو على الحديث مع أمير أو شريف

وكيف أطلب نعمة القرب من سيده حسناء .

لقد كان من بين الهندوس الذين سبق لى أن قابلتهم رجال لم يتلقوا « الوسم الالهى » لأن الكذب كان ممنوعا لمن يتلقى هذا الوسم ، وقد صرح خادم خاص لأحد أصدقائى فى بمباى ، كان يتسم بالسذاجة (أى الخادم) أنه لا يريد أن يتلقى « الوسم » الالهى لأنه يمنعه من الكذب ، مما يعطل مصالحه ، وكان من بين ما قاله حقيقة محزنة وهى أن « الكذب بالنسبة للشرقى هو طعامه وشرابه وهو الغطاء الذى يستتره » .

(٢) حكى لى جارى العجوز (الحاج سلام) قبل أن يوافيه الأجل منذ أكثر من عشر سنين أن امرأة أصرت على دخول الكعبة فاشتراط عليها زوجها ألا تكذب أبدا والا كانت طالقا فوافقت ، ولما عادت لمصر انكرت وجود أنية الطبخ عن جارتها فعد زوجها هذا كذبا وطلقها - (المترجم) .

لقد كانت الكعبة (المشرفة) عندما دخلناها قد كسيت بكسوتها الجديدة وكانت الكسوة - على أية حال - لا تغطى كل الكعبة وانما قد شمرت ورفعت بحبال الى سقف الكعبة وتدلّى منها (الكسوة) لسانان طويلان . لقد كانت من قماش أسود فخم ، وبها حزام مذهب يطوق مبنى الكعبة عند الجزء العلوى ، والكسوة والبرقع (ستار باب الكعبة) يتألقان .

ولابد أن تكون هذه العادة (كساء الكعبة) قديمة ، فمعبد النصرى (الكنيسة) يمثل فكرة العذراء أو العروس . وقد جسد الشاعر عبد الرحيم البرعى Bura'i فى إحدى فيوضاته الشعرية هذه الفكرة فقال :

وعروس مكة بالمكرامات تجلت

وهذه الفكرة - بلا شك - تؤدى الى الحجاب كما تؤدى الى قيام الطواشية (أو الأغوات) بدور الحراسة (٤) .

وقد كسيت الكعبة (المشرفة) أول ما كسيت على يد تبع (بضم التاء وتشديد الباء) الحميرى (بتسكين الميم وفتح الباء) عندما اعتنق اليهودية . واذا تقبلنا هذه الحقيقة التى يؤكدّها المؤرخون الشرقيون - فاننا نخلص بنتيجة أن بنى اسرائيل الذين استقروا فى مكة (المكرمة) قد ربطوا الكعبة (المشرفة) بعبادتهم ، والنتيجة الطبيعية لذلك أن نبى الاسلام قد أدخل موروثاتهم الأبوكرافية المشكوك فيها (الأربعة عشر سفرا التى تلحق أحيانا بالعهد القديم والتى يرفضها البروتستنت) ولم يكن العرب الوثنيون ينزعون الكسوة القديمة، وانما كانوا يضعون الكسوة الجديدة فوق الكسوة القديمة مما هدد ثقل الكسوة المتتالية بعضها فوق بعضها الآخر - مبنى الكعبة بالانهيار . ومنذ زمن قصى Kusay ظلت الكعبة تكسى من أموال يتبرع بها أصحابها لهذا الغرض حتى زمن أبى ربيعة المغيرة بن عبد الله Abu Rabi'at al Mughayrah الذى جمع أموالا طائلة من التجارة - وقد عرض أن يكسو الكعبة من

(٤) الطواشية أو الأغوات ليسوا أبدا كما ظن بيريون أو غيره رمزا للطهارة والعذرية ، فالواقع أن الطواشية أو الأغوات يتزوجون رغم استحالة انمام الاتصال الطبيعى ، وهم يستمتعون بكل شيء فيما دون الجماع . يقول العياشى فى رحلته الشهيرة : « وللأغوات خدم واتباع وضياع وخيل ٠٠٠ بل لبعضهم أزواج وسرار للتلذذ بما سوى الجماع » والمعنى واضح ولا مجال هنا لوصف أساليب التلذذ التى يمكن معرفتها استنتاجا . (انظر ترجمتنا لرحلة بوركهارت : رحلات فى شبه الجزيرة العربية - ص ١٠٨) .

ماله الخاص كل سنة كسوة جديدة ، ومن هنا فقد سمي بالعالل وقد فخل النبى (صلى الله عليه وسلم) أن تكون كسوة الكعبة من قماش يمنى جميل ، وأن يتحمل بيت مال المسلمين تكلفتها . واختار عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) كسوة من الكتان المصرى ، وأمر بتجديد الكسوة كل عام وأن توزع القديمة على الحجاج . وفى عهد عثمان (رضى الله عنه) أصبحت الكعبة (المشرفة) تكسى مرتين فى السنة ، مرة فى الشتاء ومرة فى الصيف ، أما فى الشتاء فكانت تكسى بتوب Tobe (قميص) من قماش مقصب أو مطرز وإزار Izar أو حجاب من كتان رقيق . أما معاوية (ابن أبى سفيان) فقد كساها - فى البداية - بالكتان والقماش المطرز المقصب ، ولكنه بعد ذلك استبدل بالكتان قماشاً يمنياً مخططاً ، وأمر شيبه بن عثمان أن يجرّد الكعبة ويعطر جدرانها بالخلوق . وقد قسم شيبه الكسوة القديمة بين الحجاج ولم يعترض عبد الله بن عباس على هذا التقسيم وأمر الخليفة المأمون (القرن التاسع) بتغيير الكسوة ثلاث مرات فى السنة . وكانت الكسوة على أيامه من قماش أحمر مطرز فى العاشر من محرم ، ومن كتان جميل فى أول رجب ، ومن قماش أبيض مطرز فى الأول من شوال . أما المتوكل (القرن التاسع) فعندما وصلت معلومات أن الكسوة قد بليت بسبب كثرة لمس الحجاج لها وتعلقهم بها أمر فى البداية بكسوتين جديدتين ، وأن يترك القماش المقصب القديم (الكسوة القديمة أو القميص) حول الكعبة ، ثم أمر بعد ذلك بكسوة جديدة للكعبة كل شهرين . وأثناء الخلافة العباسية كانت الكسوة التى تقدمها الدولة دلالة أو إشارة لتبعية الحجاز لسلطة الدولة ، وكانت ترد من بغداد ومصر واليمن على التعاقب . وفى زمن الإدريسى (القرن الثانى عشر للميلاد) كانت الكسوة من حرير أسود ويجدها الخليفة العباسى كل عام . وكتب ابن جببر أن الكسوة كانت خضراء ومذهبة . وظلت مصر تقدم الكسوة منذ قام السلطان قلاوون بوقف ريع قريتين مصريتين هما بيسون Baysun وسنديس Sindbus لتكلفة الكسوة السوداء الخارجية والستائر الحمراء الداخلية للكعبة وستائر قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالمدينة المنورة ، وعندما أصبحت الأراضى المقدسة تحت سلطة العثمانيين ، أمر السلطان سليم أن تكون الكسوة سوداء وقد خصص سليمان القانونى (الفاخر) فى القرن السادس عشر مبلغاً كبيراً لهذا الغرض . وكانت الكسوة بعد ذلك تجدد عند ارتقاء كل سلطان سدة السلطنة . وأثناء فتح السلفيين (الوهابيين) كسوا الكعبة فى العام الأول بكسوة حمراء من نفس قماش العباءات العربية الجميلة المصنوعة فى الأحساء (الحسا) .

وتصنع الكسوة الآن فى مصنع غزل القطن ونسجه المسمى مصنع الخرنفش فى ثمن Tumn باب الشعرية بالقاهرة . وتقوم على

صنعها أسرة تتوارث هذا العمل أبا عن جد هي أسرة أو بيت السادي Sadi ، وكانت تصنعها من خليط من القطن والحرير كما تدل على ذلك العينة التي في حوزتي . وتتكون الكسوة من ثمانى قطع : قطعتان لكل جدار من جدران الكعبة وتغطى الفسحة بين القطعتين بحزام عريض يبدو على البعد كما لو كان من الذهب وحوافه من قماش الكاليكو الأبيض وبه حبال قطنية . ويقال انه فى الأزمنة القديمة كان كل القرآن (الكريم) مكتوبا (مشغولا) عليها ، أما الآن فمكتوب (مشغول) عليها قوله تعالى : « ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين » (٥) بالإضافة لسبع سور أخرى هي : الكهف ومريم وآل عمران وطه ويس وتبارك والتوبة . وهي مكتوبة بخط الطومار الكبير الذى يقرأ من مسافة ليست قصيرة . والحزام قطعة يبلغ عرضها قدمين ويحيط بالكعبة على ارتفاع ثلثى ارتفاعها . وهو مقسم الى أربع قطع مخاطة معا . وفى القطعتين الأولى والثانية شغلت آيات العرش، وفى الجزء الثالث والرابع القاب السلطان الحاكم (العثمانى) . وهذه الكتابات المشغولة من شغل ذهبى (تطريز ذهبى) فى حرير أحمر ، كالتى على البرقع (ستارة باب الكعبة) وقد قامت بها أسرة السادى آنفة الذكر . وعندما تكون الكسوة جاهزة فى جى الخرنفش بالقاهرة ، فانها تحمل فى موكب الى مسجد الحسين حيث تخاط قطعها وتعد لحملها فى رحلة الى الأراضى المقدسة .

وبعد أن غادرت الكعبة (المشرفة) وصلت للمبيت منها كما تماماً واغتسلت بالحناء والماء الدافىء لأخفف من الآلام التى سببتها حروق الشمس فى ذراعى وكتفى وصدرى ، لقد كان البيت فارغا فلا زال كل الحجاج الترك فى منى ، وأولقنى الست الكبيرة (أم محمد) عناية خاصة . فقد بشرتنى بدخول الغرفة العلوية المكسوة جدرانها بخشب الساج المزين بخطوط كوفية وخطوط أخرى ، والمغطاة أرضيتها بسجادة كبيرة وبها كتب فسيح وكان يتجلى فيها بقايا عز غابر ، فالأسرة قد شهدت أياما طيبة وقد صادر الشريف غالب ثلاثة من منازلها ، ومع هذا فلا زالت الأسرة فقورة بنفسها ولا تستطيع خلط الماضى بالحاضر . ومن غرفة الاستقبال ، التى كان المسئولون الترك يشغلونها عندما يكونون فى مكة ، زودتنى الست الكبيرة بشيشة وقهوة وماء باردا وطعام افطار ، وقد توددت اليها بمديحى لسماجة الولد محمد ، فهى ككل الأمهات تحب وغد الأسرة (الولد الشقى فى الأسرة) . ولما دخل الولد محمد ورأى

(٥) ال عمران/آية رقم ٩٦ .

أمه جالسة بالقرب منى وحجابها مرخى فقط على فمها بدأ يوبخ أمه بتلميحات وغمزات مختلفة . لقد صاح قائلا « سرعان ما جلست بين الرجال فى الصلاة » فقالت الكبيرة : « آه يا ابنى ، خاف الله فأملك عجوز ! » وكان قولها حقيقيا فهى فى الخمسين من عمرها على الأقل . فسخر الولد من قولها : « آه آه آه » فهو ككل من فى سنه فى العالم يجب ألا يهتم - أو يتظاهر بأنه لا يهتم - بأمور الجنس وقد فهمت الست الكبيرة ما يرمى اليه فغادرت المكان بابتسامة باهتة قائلة : « الله يجازيك ! » وعلى أية حال ، فانها سرعان ما عادت وقد أحضرت معها ماء لوضوئى ولما سمعت أننى لم أضح بخروف فى منى حثتني على العودة وتقديم الأضحية بدون تأخير .

وبعد أن توضأنا وارتدينا الملابس البهيجة احتفالا بالعيد الكبير ، ركبنا حميرنا بعد الظهر وعدنا الى منى وجدت الخيمة غاصة بالزائرين ، وقد أرسل لى على بن يس الزمزمى جرة من ماء زمزم وتوقع من حملها أن أنفحه دولارا . وكان معه عدد من المكيين من بينهم شخص يتحدث الفارسية بطلاقة . لقد جلسنا ورحنا نتجاذب أطراف الحديث لمدة ساعة ، وقد علمت بعد ذلك من الولد محمد أنهم جميعا كانوا يعتبروننى أعجميا (فارسيا) .

وبعد رحيلهم تناقشنا فى مسألة الأضحية وما اذا كانت مجرد « سنة » . لقد كان يجب ذبحها بعد الرجم الأول لذا فأننى قد ارتكبت ذنبا بتأخرى ، وفى ظل هذه الظروف ، بالإضافة الى أحوال كيس نقودى المتدهورة لم أرغب فى شراء خروف فرحت أراقب جيرانى الذين وقعوا فى اضطراب شديد ، - خاصة مجموعة الهنود الذين نصبوا خيامهم بالقرب منا - عند شراء خروف الأضحية وعانى البدو من المشكلة ذاتها ، فقد كان سعيد الحظ من دفع أقل من دولار وربع ثمننا للخروف ، وهناك من فضلوا الاشتراك معا لشراء ثور هزيل ولم يذبح أحد من الحاج جملا سوى الشريف وعلية القوم ، وكان الحاج يسحب أضحيته الى صخرة ناعمة قرب العقبة وقد نصب فوق هذه الصخرة سرادق صغير مفتوح احمرت جوانبه بفعل دماء الأضحيات التى سالت عليه ، وقد انشغل الشريف وسائر الحاج بذبح أضحياتهم فى هذا السرادق ، وهناك آخرون وقفوا أمام خيامهم ووجهوا وجه أضحياتهم نحو الكعبة (المشرقة) ونحروها وهم يقولون بصوت عال : « بسم الله ، الله اكبر » .

وقد لفت الولد محمد انتباهى - ساخرا - الى الهنود الذين أصبحوا جنسا رقيقا !! فاستأجروا جزارا عربيا ليذبح أضحياتهم ، وإثار غضب

الشيخ نور اثاره شديدة بتعليقاته الساخرة قائلاً ان لأهل الهند قلوباً كقلوب الدجاج • وانه لأمر يدعو للتقدير أنهم يذبحون الأضحية دون أن يأكلوا منها شيئاً ، ويرى المرء جماعات التكرانة (التكروريين) وهم جالسون كالنسور يراقبون الخراف والماعز حتى اذا حانت اللحظة المناسبة انقضوا عليها وقطعوها قطعاً دون نقلها من مكانها • وسرعان ما تحول سطح الوادى الى مسلخ كبير ، وراحت روحى التواقة لمعرفة المستقبل لا تتوقع خيراً (١٩) •

لقد قضينا فترة شديدة الحرارة بعد الظهر فى بطن منى التى لا تبعد عن كونها حفرة بركانية • وكلما دنا الليل توقفت هبات رياح السموم الموسمية ، وهبط علينا من تلال الطائف سحب ممطر ذو لون أرجوانى يحمله هواء راكد تماماً ، ولما حل الظلام أسرع الحجاج الى الساحة الواقعة أمام مسجد منى ليتمتعوا بمشاهدة الألعاب النارية ويشاهدوا المدفع وهو يطلق قذيفته ، لكن أثناء مراقبة المشهد هبت عاصفة فطغى نور البرق على نور الأسهم النارية ، وطغى صوت الرعد الذى رددت التلال صدها على صوت قذيفة المدفع وأخرسها • لقد كنا قد فقدنا الأمل فى سقوط المطر ، لكن زخات شديدة وقصيرة هطلت على السهل وتغلغلت فى أعماقه العطشى ، ولم نحظ بعد ذلك الا بالرعد والبرق وسحب التراب والعواصف •

الفصل الواحد والثلاثون

أيام القديد (١) الثلاثة

الرجم - مجر الكبش - اعتقاد اهل مكة ان القروء هم في الاصل
يهود مسخوا - طرائف عن القروء - ميل قروء الحجاز للنساء -
رقصة الحرب عند يدو الحجاز - مقترحات مفيدة لمنع الامراض في
منى عقب تقديم الاضاحى - رمى الجمرات لآخر مرة - افكار تعوق
تقدم العالم الاسلامى *

كان كل شيء فاترا كليلا بعد بهجة العيد الكبير ، فحرارة الليلة
التالية حالت بينى وبين النوم ، فقضيت معظم الليلة جالسا فى ضوء
القمر الذى كان قويا يتيح الرؤية ، فمعسكرنا الصغير يحتاج لحراسة
فى هذا المكان المعروف بكثرة لصوصه *

وبعد منتصف الليل ، عدنا مرة أخرى لرجم الجمرات ، فبدأنا
بالعلا Ula أو العمود الأول فى الطرف الشرقى لمنى ، فقفزنا على
كل عمود سبع حصوات حتى أصبح مجموع ما القيناها احدى وعشرين
حصوة ، وقد سبق أن وصفت تفاصيل شعيرة الرجم هذه *

وفى يوم الخميس الموافق ١٥ سبتمبر ١٨٥٣ استيقظنا قبل الفجر
وجهزنا افطارا خفيفا يعيننا على متاعب المشى قافزين من حجر الى
حجر ، بعد نصف ساعة قضيناها نقفر من جلمود الى جلمود وصلنا
لموضع يقع عند المنحدر الأدنى لجبل سابر Sabir السور الشمالى
لحوض (جوف) منى * وهنا يوجد مجر الكبش Majarr al kabsh
وهو مبنى مربع صغير مطلية جدرانها بالطلاء الأبيض ومقسم الى قسمين :
القسم الأول يمكن الدخول اليه من الزاوية الشمالية الشرقية بصعود

(١) القديد هو اللحم المجفف - (المترجم) *

ولما ارتفع القمر سرت أنا والولد محمد فى البلدة ، ورجمنا لثانى مرة ، وارتدنا المقاهى ، أما المحلات التجارية فقد أغلقت مبكرا لكن الأعمال التجارية ظلت دائرة الرضى حتى منتصف الليل فى بعض الأماكن العامة . ودخلنا مساكن معارف كثيرين ممن بادرونى بالود ورحبوا بى بكرم وقدموا الشيشة والقهوة . وكان أول سؤال يتبادر الى أذهانهم هو : « من هو هذا الحاج ؟ » وكانت الاجابة أكثر من مرة : « أفغانى » مع أننى لم أكن استطيع الحديث بلغة وطنى ، وعلى أية حال فان هذه الظاهرة لم تكن تسبب مشكلة فكثير من الأفغان المقيمين فى الهند لا يعرفون كلمة واحدة من لغة الباشتو Pushtu بل ان كثيرين من أهل المدن لا يعرفونها بشكل مرض فى المنطقة الواقعة شمال الممرات . وأهل مكة (المكرمة) - نتيجة احتكاكهم بالغرباء على نطاق واسع ، واعتيادهم على السفر - قد أصبحوا بشكل مدهش يتحدثون عدة لغات . وهم - أى أهل مكة - يتحدثون اللغة العربية بشكل جيد وبذراية تفوق ذراية السنة أية أمة فى قارتنا الأوربية . وأهل مكة - بشكل عام - يعرفون الفارسية والتركية والهندوستانية ، والمطوفون الذين كرسوا أنفسهم لأداء خدمات الطواف للأجناس المختلفة سرعان ما يصبحون متقنين للغات كثيرة .

وأثناء عودتنا فى الطريق الى البيت دعانا صوت تصفيق بالأيدي وغناء عال ، فلما دخلنا وجدنا زحاما من بدو حول مجموعة مندمجة فى الرقص الوحشى العنيف بطريقة تجعل المرء يظنه أبعد ما يكون عن روح الرقص الحقيقى بما فيها من خيال وإبداع ، وقد راح المتفرجون يشتركون فى أداء أغنية مصاحبة ، وكالعادة تخلل الرقص تراتيل طويلة ، بمقام موسيقى منخفض ومتوحد بحيث يصبح صوت المجموع وكأنه صوت واحد ، على النسق الذى يعجب الشرقيين ، وكانت اللازمة هى :

لا ، ياياها ! لا ياياها !

La Yayhà' là Yayha

ولم يستطع أحد أن يدلنى على معنى هذه الكلمات ، وفى بعض الأحيان كانوا يغنون كلمات مفهومة ، ومن ذلك :

نهار العيد فى منى شفت سيدى

غريب الدار عندكم فارحموني (٤) .

ويبدو أن لهذا المقطع الشعري معنى رمزياً مبهماً - كما هو الحال في أشعار بعض الشعراء الأوربيين المحدثين المهتمين بالكتابة للأطفال ويمكن اكتشاف المعاني المقصودة في هذه الأشعار عندما يتعلم العرب كتابة البحوث المستفيضة عن أدب الطفل (شعراً ونثراً) . وأسلوب القفز أو التغير المفاجيء (في الرقص) ويسمى الرفيه Rufayah (٩) يتمشى مع الأغنية ، ويرفع كل راقص من الراقصين ذراعيه الاثنتين فوق رأسه وهو يلوح بخنجره أو مسدسه أو أى سلاح صغير آخر ، ويتبع كل راقص الآخر واثباً على قدم واحدة أو قدمين ، وأحياناً ينخرطون في قفزات مخبولة فاقدة العقل بينما يصفق المشاهدون باكفهم تصفيقات مفعمة بالحياة . أنها رقصة الحرب لديهم كما أخبروني ، ولديهم رقصات أخرى لم تتح لى الظروف أن أشاهدها . ولا تختلط النساء بالرجال في الرقص عند البدو على عكس الحال عند الصومال والعناصر الأفريقية الأخرى ، وإن كان يمكن للفتيات البدويات أن يرقصن معاً ومن العار أن يشاركن الرجال في ذلك .

وفي يوم الجمعة الثاني عشر من ذى الحجة ظهرت الجمال - حسب الأوامر - قبيل الفجر وتم تحميلها بعد قليل من التأخير . لقد كنا قلقين أن ندخل مكة (المكرمة) وقت القاء الخطبة وقد كنت تواقاً لمغادرة هذا الجو الموبوء فى منى .

لقد انتنت الأرض فى منى ، انتانا بمعنى الكلمة ولا غرو فقد تم ذبح خمسة آلاف أو ستة آلاف أضحية ، وفى وسع القارئ أن يتخيل ما يمكن أن يحدث نتيجة ذلك . وكان يمكن تجنب هذا الوباء ببناء مسلخ أو مذبح أو حتى حفر خنادق طويلة وإصدار الأوامر للحجاج بالمذبح فى الأماكن المخصصة لذلك والا تعرضوا للعقاب ، ومما لا يبعث على السرور أن روح الاسلام لا تشجع على وضع هذه المحاذير فى الاعتبار ، فالروح العامة التى تمثلها كلمات على شاكلة « إن شاء الله » أو « قسمة » تعوق الحذر والاهتمام . وفى مكة (المكرة) فإن المتدينين يفضلون الهلاك بمرض الكوليرا على الهرب من القضاء والقدر مما يدل على عدم تقواهم وفقاً لاعتقادهم .

(٤) جعل بيرتون مقابلاً لهذه الأشعار العامة ما يفيد عدم ادراك بعض معانيها :

On the Great festival day at Muna I saw my lord ... et

وليس المقصود هنا أن الشاعر قد رأى سيده ، وإنما السيد هنا (سيدى) منادى

أى (يا سيدى) - (المترجم) .

الفصل الثانى والثلاثون

الحياة فى مكة ، وأداء العمرة

حديث عن هروب عمر افندى للقاهرة - محمد شقيلها -
مناقشات عن رحلات لم تتم الى وسط الجزيرة وصنعاء - استعداد
الحجاج للرحيل لبلاهم - هل ارسل الانجليز بعثة للرسول صلى
الله عليه وسلم طالبين الدخول فى الاسلام ؟ - الجوارى - المشالى -
الميل للكسل - الاسراف - اثر الاكراميات فى السلوك - المرابون -
البقايا الوثنية فى العقائد المختلفة .

لقد كانت أيامى القليلة الباقية فى مكة (المكرمة) مبهجة بما فيه
الكفاية . فقد زارنى عمر افندى بانتظام وخطط ليصحبنى هاربا الى
القاهرة . وكنت قد ناقشت بالفعل مع محمد شقيلها Shiklibha
- الذى ظهر فجأة فى منى بعد وصوله من السويس الى جدة ووصله
لمكة المكرمة وقت الحج - امكانية قيامى برحلة نحو الشرق ، فارتفع
حاجبا هذا الرفيق الأمين حتى كادا يصلان الى عمامته ، دهشة
واستغرابا ، وقال بصوت كالزئير : « والله يا افندى ! أنت مجنون
بالتأكيد ! » وكان كل يوم يزودنى بأخبار جديدة عن القوافل المختلفة .
وكان بدو الحجاز - كما قال لى - فى حالة هياج بسبب التقارير التى
تصل عن الحرب المقدسة ، وبسبب الحاجة الى المال وبسبب الشائعات
عن المعارك بين الشريف والباشا - وكانوا يتحدثون بالفعل عن هجوم
على جدة . أما الشيخ مسعود ، الجمال الذى اتفقت معه على أحسن
الشروط (البنود) فقد نصحنى جادا أن أبقى فى مكة بضعة شهور حتى
قبل التوجه لصنعاء ، واتفق آخرون معه فى هذه النصيحة وباختصار
فإن نجمى لم يكن فى صعود فى ذلك الوقت ، فهيأت نفسى لتقبل العودة
للقاهرة .

وكنت قد أصبحت أنا والكولونيل التركى أصدقاء كرجلين لا يعرف
أى منهما لغة الآخر وقد استفاد من بعض الوصفات الطبية (التى قدمتها

الى الانجـريز Ingreez (٢) الذين فشلوا فى الغاء دينهم - نظراً لوفاة نبي الاسلام - لكن رفضهم للمدين الاسلامى كان مصحوباً بتقديرهم له ، ولهذا السبب فان المسلمين فى بلاد البربر (الشمال افريقى) وغيرها يصفون الانجليز بأنهم « أهل كتاب » بمعنى الكلمة وهو قول يعنى ميل المسلمين لهم (للانجليز) . وفيما يتعلق بالتراث النبوى (الاحاديث النبوية) المتعلقة بسقوط مكة (المكرمة) وبقيام أحد الأحباش بتحطيم الكعبة فقد قيل لى انه فى نهاية الزمان سيعبر جيش كثيف من افريقيا الى الحجاز حتى انه - لفرط كثافته وكبر عدده - يمكن نقل حجر من جدة الى مكة من يد الى يد ، ومعنى هذا أن الجيش قوامه ستون ألف مقاتل فى مساحة أربعة وأربعين ميلاً ، لكن أهل مكة يقولون ان هذه الأرقام مجرد اشارة الى أن أفراد كتائب هذا الجيش لا تحصى . ويأمل بعض المسلمين الأتقياء أن تكون هذه النبوءة قد تحققت بالفعل عندما قام عبد الله بن الزبير باعادة بناء الكعبة . وعلى أية حال ، فالاعتقاد العام هو أن هذا الحدث القدرى (هدم الكعبة) لا زال فى رحم الغيب . وفى جانب سابق من هذا المجلد اشرت الى مخاوف غيبية مشابهة تقاب العقل الإسلامى ، وقد يرى فيها المسيحى المتحمس لأفكار عقيدته - دلالات على امكانية انتشار الكثير منها فى عصور قادمة .

لقد تعودت أن أقوم متأخراً بعد الظهر ، فأتوضأ ، وأذهب للحرم أو أتجول فى الأسواق حتى المغرب ، وبعد ذلك كان من الضرورى أن أعود للبيت لاعداد العشاء ، وبعد تناول وجبتى اعتدت أن أجلس بوقار شديد أمام باب البيت فى الشارع ، على كرسي خشبى أسود مكسور المسند ، يقال ان أحد أمراء دلهى سبق أن تركه فى المنزل ، وادخن الشيشة وأشرب مشروبات متعددة كفنجان شاي أخضر قوى المذاق مع فص ليمون ، واطافة الليمون للشاي تغنى عن اضافة الحليب اليه . وفى هذه الساعة يكون مقعدى كما لو كان مقعداً فى مسرح ، وبعد هبوط الليل اما أن نعود للحرم أو الى اماكننا فى المنزل للراحة . وكان مهجعنا الجماعى هو سطح المنزل .

لقد أقمت فى مكة ولكن لفترة قصيرة ولم أر أفضل نماذج سكانها كما يحدث عادة مع الرحالة ، فقد بدا سكانها لى أكثر تحضرًا وأقل تمسكاً بالفضائل من سكان المدينة (المنورة) ، فهم سرعان ما يتركون بلدكم (مكة) اذا اتاحت فرصة خوض تجربة فهم يميلون للاغتراب وأصبحوا

(٢) أى الانجليز ، وقد أوردها بيرتون كما نطقها عبد الله - (المترجم) .

خيراء بالعالم محبين للعال ونسوا الله قليلا ، ويقال عنهم ان مبداهم
فى الحياة هو : « طوف واسعى ، واعمل السبعة » اى ارتكب المعاصى
السبع ثم طف بالكعبة واسع بين (الصفا والمروة) ، لذلك يقال ايضا
« الحرام فى بلاد الحرمين » ، ولا عجب فما دام الحصول على الغفران
بهذه السهولة الشديدة (٣) . ويمنع الحاج من البقاء فى مكة بعد أداء
النسك - أو بالأحرى يحتونه على مغادرتها ، فالمالك فى مكة لشهور
قلائل بعد أداء النسك يعتاد على منظر الكعبة (المشرفة) .

وعلى أية حال فليس فى مكة (المكرمة) - الا القليل - مما يؤذى
العين . وكما يحدث لدى أمم أكثر بعدا نحو الغرب فان طبقة الرماذ
تنتشر فوق النار ، والمنجم تحجبه المروج الخضر التى تمتد فوقه . ولا
يكون أهل مكة ذوى طباع رقيقة بعمائم خشنة وثياب من صوف مصرى ،
ويتخذون من طريقهم فى الحديث قناعا يخفون وراءه اغراضهم ، الا فى
الضواحي الشمالية لمكة ، فهناك يلقاهم المرء اثناء تجواله . فلا أحد هنا
يتعرض للعقاب بسبب فسقه وفجوره ، فذاكرة الرواة لا تحتفظ بشيء
كهذا . وتباع هنا الخمور ، تماما كما كان عليه الحال أيام بوركهارت -
فى محلات ، وقد أكد لى بعض الضباط الألبان أنهم وجدوا صعوبات
كبيرة فى تهريب قوارير من العرقى Araki من جدة .

والكى أكثر دكانة من المدينى (مستوطن المدينة المنورة) ، ويعمل
الناس ذلك بحرارة الجو فى مكة لكننى أعتقد أن هذا يعود فى الأساس
لعدد الجوارى السود اللأى يصلان الى السوق ، فالجوارى الجالاويات
Gallas (من الجالا) والسواحيليات وقليل من الصوماليات
والزيلييات (من زيلع Zayla) والحبشييات ترسو بهن السفن فى
مواكن وزيلع وتاجورا Tajurrah وبريره ، وينقلن الى جدة بالآلاف ،
ويكون من نصيب مكة (المكرمة) من كل صنف منهن عدد (تأخذ مكة
من كل صحن لقمة) ، ويقل سيل الجوارى كلما اتجهنا شمالا وبذلك
يكون نصيب المدينة (المنورة) منهن أقل ، ويقل نصيب مصر وتركيا عن
نصيب المدينة ، أى يقل عددهن كلما اتجهنا شمالا .

(٣) أورد بوركهارت الأفكار نفسها (انظر الترجمة العربية : رجالات فى شبه
الجزيرة العربية ، ١٩٩٢) ، والواقع أن الربط بين الغفران وعمل بسيط كالاعتراف
أو الدعاء أو قول كلمة ٠٠٠ الخ قد يكون من بين أسباب شيوع الفساد والانحلال
والسرقات ٠٠٠ الخ ، فالتركيز على أن من قال لا اله الا الله غفر له وان زنى وان سرق
« رغم انك أبى ذر » ان التركيز على ذلك دون فهم لثقافة المستمعين ومدى تأثير
ذلك فى عقولهم ، يؤثر بلا شك تأثيرا سيئا ، فالدعوة إذن فى حاجة الى استراتيجية
تضم فى اعتبارها طبيعة المستمعين ، وليس مجرد اطلاق النصوص فى أى
وقت وفى أى مكان - (المترجم) .

الطغيلية في الفكر الدينى الانجليزى ؟! وماذا عن العادة الايرلندية في السهر الى جوار جثة الميت قبل دفنه أو الاحتفال بعيد شفيق كنيسة ؟! وماذا عن عيد المرفح Carnival واسلوب العبادة في ايزرنا Iserna (؟) فحتى البدوى عند طوافه بالكعبة يعتقد انه يفعل ذلك اسوة بخليل الرحمن .

وفى عرفات يقف المسلم وفى قرارة نفسه انه يفعل ذلك اسوة بصفى الرحمن - آدم عليه السلام ، وعندما يقذف بالحصى ويصب اللعنات على مجرد أعمدة فانه لا يفعل ذلك الا لجرد احياء ذكرى قذف (ابراهيم الخليل) للشيطان ، وهذه العملية (الرجم) تعطى القائم بها عزما وقوة وكأنه يقذف الشيطان بالفعل . وقد تم توزيع الطواهر الخارقة للطبيعة (الروحية) اثناء عملية الحج بعناية ودون اسفاف ، ومن ذلك ان الملائكة تنقل الحصوات التى رجم بها الحجاج من منى الى المزدلفة ، ورفيف أجنحة الملائكة هو الذى يحرك كسوة الكعبة واكمال الملائكة الهابطين من السماء عدد الحجاج اثناء خطبة عرفات - كل هذا يتم بفعل كائنات روحية لا يراها البشر ، وهذه العقائد الروحية موجودة أيضا فى المسيحية . وأهل مكة ملومون - وهذا حقيقى - لحبهم الشديد للمال مع انهم فى أكثر البقاع تبجيلا وقداسة مما يثير اشمئزاز الحجاج . وهنا - عنى اية حال - لا نرى فى مكة (المكرمة) خداعا غيبيا بادعاء هبوط نار سماوية من كبريت الفسفور ، ولا يفعلون كما تفعل بعض الكنائس المتنافسة التى تنشب الأسنان والأظافر فى اللحم مما يتطلب ازدياء غير المؤمنين ، وفى مكة (المكرمة) لا نرى نساء يحملن بنظاراتهن ، ولا كلاب صيد braqués عند رأس الكنيسة (؟) ، ولا دعما للطبيعة بالشطائر (السندوتشات) المختلطة ، كما لا نجد هنا حمل الكلاب المدللة التى غالبا ما تنبج ولا تحتفظ بصمتها ، كما لا نجد هنا زحاما شديدا لسماع الموسيقى المسرحية ، وإذا كان أهل مكة يميلون للسخرية من التكروريين (التكارنة) المتبربرين ، فانهم لا يفعلون ذلك دون حياء ، أو بشكل عام بينما نجد الأروام الكاثوليك يسخرون بالنكات البذيئة من تعصب الغرباء القادمين من مستنقعات أيرلندة . وأخيرا فأننا لا نرى فى مكة (المكرمة) شيئا مسرحيا مصطنعا ولا نرى لباس مناسك الحج لبوس الأوبرا ، بل ان كل شيء هنا بسيط ومؤثر يملأ العقل بخشية الله .

وفما يتعلق بعقائد المسلمين بما فيهم أهل مكة أن ابراهيم (ال خليل) وابنه قد قاما ببناء الكعبة ، قد يكون من الجدير ملاحظة نظرة العهد القديم أن ابراهيم الخليل Great patriarch كان يريد تعليم الناس

فكرة « الإبراهيميين The two Abrahams » أحدهما ابن Terah والآخر ابن آزار Azar (النار) وهو بروميثيوس Prometheus الذى جلب الحضارة والمعرفة لشبه الجزيرة العربية من حران Harran المركز المقدس لتعاليم الصابئة Sabaeen Learning ويوافق كل المؤرخين المسلمين على أن إبراهيم الخليل كان فى شبابه من عبدة النجوم (؟ !) (٤) فهل حدث أن زار اسماعيل أو أبوه مكة (المكرمة) لبناء الكعبة - أن هذا - يعتبر فى رأى المتواضع سؤالاً مفتوحاً . فالعهد القديم يخبرنا - فقط - أن إبراهيم الخليل سكن بير سبع Beersheba وجرار Gerar فى جنوب غرب فلسطين دون أية إشارة الى زيارته السنوية لمكة المكرمة كما يقول المسلمون . وفى الوقت نفسه تحدثنا الماثورات بوضوح وثبات عن هذا الموضوع وتحذف - بشكل عام - هذه المعجزات والخوارق الملحقة التى تلقى ظلالة من الشك المؤلم على العقل الفلسفى (النزاع للتفكير) .

ولازالت المخاطرة غير قليلة بالنسبة للحاج الغربى عند أدائه المناسك ، وثمة مستشرق مثقف قد سجل تجربته عن زيارة مكة دون تنكر فى مؤلف نشر منذ سنوات قلائل . لقد أكد أن الحاكم التركى لم يعد يضع العراقيل أمام الرحالة الأوروبى ، الا أننى لا أنصح الصديق أبداً بمحاولة ذلك . حقيقة أن الأوروبى (الأفرنجى) لم يعد - كما فى أيام الكابتن هيد Head - يوقف عند تجرؤه على عبور بوابة مكة فى جدة ، وأن نواب قناصلنا والرحالة يسمح لهم بزيارة الطائف والمناطق الواقعة شرق مكة (المكرمة) حتى لا تلوث نظرتهم الكعبة ، ولم يعد الباشا ولا الشريف فى هذه الأيام يجرون على تطبيق القانون القديم على الرجل الانجليزى (اذا تخطى بوابة مكة) ، والقاضى بقبول الختان (الاسلام) أو القتل ، لكن أول بدوى سيلمح قبعة أوربية لن يعتبر نفسه رجلاً اذا لم يصوب للرأس ذى القبعة طلقة من بندقيته . والتنكر اثناء موسم الحج مسألة سهلة بالنظر الى الأعداد الهائلة والمختلفة التى تزور مكة ، لكن الويل له اذا حدث لسوء حظه أن عرفت الجموع أنه كافر ، الا اذا استطاع أن يضع نفسه تحت حماية الحكومة .

وفى الرابع عشر من ذى الحجة بدأنا نؤدى مناسك العمرة فبعد أن استحممنا ولبسنا ملابس الاحرام المعتادة خرجت ومعى الولد محمد وأخوه عبد الله وركبنا الحمير التى تشبه البغال فى سرعتها وأحجامها ، واتحينا للحرم وصلينا ، ثم ركبنا مرة أخرى ومررنا عبر باب الصفا Bab al-Safa الى منطقة فسيحة فى الشمال الشرقى من مكة

(٤) لم يستلزم إبراهيم الخليل على هذه العبادة لصرعان ما وجه وجهه للذى قطره كما هو واضح فى القرآن الكريم .

(المكرمة) كانت مزدحمة بالحجاج (المعتمرين) الراكبين والراجلين وهم يلبنون (قائلين لبيك اللهم لبيك) وهذه التلبية فى ذلك الوقت تميز بين المنخرطين فى أداء العمرة وغيرهم من الملتحقين بقافلة الحج الشامى . وعلى بعد حوالى نصف ميل من مكة كان عن يسارنا كومة ضخمة من الأحجار وقف رفاقى عليها وصبوا لعناتهم فهناك اعتقاد شائع أن هذه الكومة تميز مكان البئر الذى نصب فيه أبو لهب كميناً للنبى (صلى الله عليه وسلم) فقد قام هذا العم الشرير (أبو لهب) بتكليف أحد العبيد بالكمن فى هذا المكان وأمره أن يقذف بشدة أول شخص يقترب منه ، ثم راح أبو لهب يبحث ابن أخيه (محمداً صلى الله عليه وسلم) أن يذهب لهذه البقعة ليلاً ، وبعد فترة اعتري أبا لهب قلق وأراد أن يتأكد أن خطته نجحت فتسلل ليلاً الى البقعة نفسها فتلقى الضربة التى كان يريد بها من نصيب محمد (صلى الله عليه وسلم) ومن هنا كان القول المشهور فى الاسلام « من حفر لأخيه حفرة وقع فيها » . وهنا أضفنا نصيبنا من الحجارة ، ثم واصلنا المسير ، ورأينا طريق جدة يقطع السهل كالشريط الأبيض ، وكان أمامنا الطريق الرئيسى الذى تحفه الآن خيام المقاهى التى يرقص أمامها صبية مخنثون ، وإلى اليسار قصر أمير الحج وحوله خيام الحجاج (المعتمرين) وبعد أن سارت حميرنا خبياً حوالى ثلاثة أميال وصلنا للعلمين Alamayn اللذين يحددان المنطقة المقدسة (مكة وما حولها) ووراء العلمين بقليل يوجد تجمع صغير يسميه العامة العمرة Al-Umarah ، ونزلنا عن حميرنا هنا وجلسنا على سجاجيدنا خارج إحدى الخيام التى تستخدم كمقهى ورحنا نستمتع بضوء القمر وقضاء ساعة « الكيف » kayf فى هواء الصحراء النقى .

وبعد أن دفعنا لصاحب المقهى ، أحضر لنا ماء للوضوء ، ثم دخلنا المصلى الرئيسى وهو مبنى متواضع سيىء الإضاءة مفروش بسجاجيد غير نظيفة ، وكان مزدحماً تماماً بالحجاج ، وفى هذا المصلى صلينا العشاء وصلينا ركعتين سنة الاحرام ، ثم وزعنا الأعطيات على الحرس والصدقات على المتسولين اللوحين . ولقد فهمت الآن هدف عيد الله من صحبته لى . لقد أكد لى هذا الرجل السوداوى أنه صبحنى حياً منه لشخصى ولرغبته ليقوم بدور الوكيل لأداء العمرة نيابة عن والدى ، وعبثاً حاولت اثناءه فأدركت أن حبه لى يعنى حبه لدولاراتى . وقبيل سمحت له أخيراً أن ينوب عن أبى يوسف بن أحمد وأمى فاطمة بنت يونس فى أداء العمرة . وكان من المحال أن أمنع نفسى من الابتسام من هذا التناقض فقد رفع عبد الله بديه بوقار ووجه وجهه صوب الكعبة ، وتمتم

قائلا : « نويت الاحرام بالعمرة باسم يوسف بن أحمد ، وفاطمة بنت يونس ، اللهم يسرها لهما ، وتقبلها منهما ٠٠ ! بسم الله ! الله أكبر ! » .

وركبنا مرة أخرى وأسرعنا تجاه مكة (المكرمة) ونحن نهتف : « لبيك اللهم لبيك » ، وكنا نتوقف كل نصف ميل لشرب القهوة والتدخين ، ودخلنا مكة (المكرمة) بعد وقت يسير واتجهنا للحرم من بوابة الصفا Safa Gate وطفنا حول الكعبة (طواف العمرة) ثم غادرنا الحرم من البوابة نفسها ، وركبنا مرة أخرى واتجهنا للصفا الذى يقع على بعد حوالى مائة ياردة الى الجنوب الشرقى من المسجد الحرام ٠٠٠ وعلى مقربة من ذهاية الصفا (طرف الصفا) مبنى متواضع يتكون من ثلاثة عقود دائرية round arches ودرجات سلم تؤدي لهذه العقود خارج الطريق الضيق واستدركنا بحميرنا دون أن ننزل عنها واكتشفنا اليسرى للأمام فلا شيء سهل وسط الزحام وبذلنا كل الجهد لرؤية الكعبة من خلال باب الصفا ونوينا نية « السعى » ، وبعد التهليل والتكبير والتلبية رفعنا أيدينا وكررنا مرتين ما يلى : « لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت لا اله الا هو وحده حى لا يموت ، بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير » ثم هبطنا من الصفا والحمارة الصغار يقودون حميرنا ورفاقنا الشجعان يسبقوننا ومعهم الفوانيس والنباييت ليبعدوا عنا البدو المهرولين والجمالة وراكبى الحمير ، وهبطنا فى شارع المسعى Massa نحو المروة ٠ وعند نزولنا كنا نردد : « اللهم يسر لى أداء العمرة وفقا لسنة نبيك وأمتنى على دينه وباعد بينى وبين الخطيئة والمعصية برحمتك يا أرحم الراحمين » ولما وصلنا لما يسمى بطن الوادى - وهو الموضع الذى يحددونه الآن بعمودين أخضرين : أحدهما فى الجانب الشرقى للحرم والآخر فى منزل على الجانب الأيمن - بدأنا الجرى بحث دوابنا ٠ وهنا كنا نردد : « اللهم اغفر وارحم وتجاوز عما أنت به أعلم فأنت الأعز الأكرم ٠ نجنا من عذاب النار ، وأدخلنا جنتك بسلام ، وهبنا السعادة فى الدنيا والآخرة ٠٠٠ » وفى نهاية هذا الدعاء كنا قد عبرنا البطن أو الجزء الأكثر انخفاضا فى المسعى الذى تعلم نهايته (نهاية البطن) بعمودين آخرين ٠ ومرة أخرى بدأنا فى الصعود ورحنا نردد ونحن نصعد : « ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ٠٠ » وباختصار فقد وصلنا للمروة وهى مرتفعة قليلا كالصفا عند منحدر جبل أبى قبيس ، وتتجمع المنازل فى مدرجات فوق منحدر الجبل ، ومن المسعى يمكن صعود درجات قصيرة الى منبسط محاط من جوانب ثلاثة بجدران عالية بدون عقود ٠ ويبدو الطريق (المسعى) من أعلى منحنيا كوتر القوس ، ويبلغ طوله ما بين ثمانمائة قدم وتسعمائة قدم وتحفه المساكن

المرتفعة من الجانبين وتخرج منه أزقة صغيرة . وعند قاعدة المسطح
(أنف الذكر) جعلنا أكتافنا اليمنى للأمام right shoulders right
لمواجهة الكعبة ورفعنا أيدينا الى آذاننا ثلاث مرات ، لنقول عقب كل
مرة « الله أكبر » بداية لتنفيذ شعيرة السعى سبعة أشواط .

لقد انتهى سعينا عند جبل المروة حيث نزلنا من فوق حميرنا
وجلسنا أمام دكان حلاق الى يمين الطريق . لقد بدأ الحلاق برءوسنا
وجعلنا نردد الآتى : ربنا هذه نواصينا بين يديك ، فهبنى مقابل كل
شعرة نورا فى الحياة الأخرى ، يا أرحم الراحمين « وبهذا العمل الرابع
(الجزء الرابع) ، وبعد أن دفعنا للحلاق ، نكون قد أنهينا العمرة .

وطرحنا ملابس الاحرام فوق رءوسنا دلالة على أننا أصبحنا
الآن فى حالة « احلال » ودخلنا الحرم وصلينا ركعتين ثم عدنا للبيت
وقد شملنا ارهاق غير قليل .

الفصل الثالث والثلاثون

المواضع التى يقصدها الزائرون للتبرك

فى مكة المكرمة

صعود جبل أبى قبيس - جنة المعلا - قبر عبد الرحمن بن أبى بكر - الست أمينة - السلفيون والقبور - مسجد الجن - موضع الخط - زقاق الحجر - مطحنة (رحاية) فاطمة - سوق الرقيق - سوق الليل - قصور الشريف عون - نطق النبى - مولد النبى - شعب على - منزل خديجة (رضى الله عنها) - مولد حمزة - الأغا - وجبة دسمة •

ليست هناك مواضع كثيرة يتعين على الرحالة مشاهدتها فى مكة المكرمة ، فباستثناء جبل النور وجبل ثور (١) ، نجد أن كل المواضع التى يقصدها الزائرون للتبرك تقع داخل مكة أو بالقرب القريب منها •• ووجدت من المفيد أن أصعد جبل أبى قبيس لرؤية مكان الحجر مكان al-Hajar وشق القمر (٢) ولالقاء نظرة من أعلى على الحرم الحريم والمناطق المحيطة به •

(١) جنوب مكة •

(٢) وهو الموضع الذى يروى الرواة أن الرسول صلى الله عليه وسلم شق فيه القمر لنصفين أمام مشركى قريش • والطريف أن بيرتون يقول أن هذه الحادثة كانت غير معروفة أيام الرسول ، ومعنى هذا أنها رواية موضوعة • وعلى أية حال فالمسألة خلافية - (المترجم) •

لقد شرع الولد محمد فى ممارسة التجارة بدأب بعد العودة للبيت
فقد رآه الشيخ نور بالفعل جالسا فى دكان يبيع التحف والأشياء الغريبة،
وقد وافقت برضاى على الاستعانة بأخيه عبد الله بدلا منه . وفى صبيحة
الخامس عشر من ذى الحجة (التاسع من سبتمبر) استأجر حمارين
وصحبنى - كدليل لى - للأماكن التى يتبرك بها الزائرون (٣) .

ولما ركبنا دوابنا سلكنا الطريق الذى سبق أن وصفناه الى جنة
المعلا (بضم الميم وتشديد اللام) وهى مقبرة مكة المبجلة . لقد كان
لها أسوار خشنة غير جميلة وبوابة بائسة ، فاذا دخلتها وجدت أرضا
قاحلة كالحمة ، وتقع غند سفح السلسلة التى تحيط بالحي الغربى لمكة
الى الأسفل من العقبة Al-Akabah وهى الثغرة (الفجوة) التى
دخل منها خالد بن الوليد بصحبة النبى المنتصر الى مكة . وبداخلها
قليل من القباب البائسة كلها حديثة البناء ، فقد قام السلفيون بتسوية
القبور بالأرض كما فعلوا فى مقبرة البقيع (فى المدينة المنورة) ، ويشاهد
المرء بعض المواضع المسورة الخاصة لدفن أموات أسرته يعينها
- كمدافن الأسر عندنا فى أوروبا - وتبدو خرائب القبور فى فوضى ،
بينما يوجد قليل من نبات الصبار المجفف بين الأحجار والطوب
اللين (٤) .

ومقبرة جنة المعلا مقبرة شهيرة فى التاريخ المحلى ، فهنا تم صلب
عبد الله بن الزبير بأمر من الحجاج بن يوسف (الثقفى) وعدد الصالحين
الذين تم دفنهم فى هذه المقبرة كبير . وقد نسى كثير منهم حتى فى القرن
الثانى عشر . ويزور رجال مكة هذه المقبرة أيام الجمع ، أما النساء
فيفرنها أيام الثلاثاء ، وذلك لمنع اختلاط الجنسين فالاختلاط أمر مشين
فى الشرق ، وسأتجاوز عن ذكر ما يفعله المرء عند زيارته لهذه المقبرة
من صلوات ودعوات لأنها تشبه ما سبق أن ذكرته عند الحديث
عن البقيع .

وبعد دعاء طويل عند البوابة دخلنا وسرنا الهوينى على أرض
المقبرة ، وعن يسار الطريق يوجد حوش (مكان مسور) يخص أسرة
عبد الله (وفقا لما قاله هو) وكانت البوابة والشواهد الحجرية المناسبة

(٣) موسم الحج هذا العام انتهى فى ١٧ سبتمبر وبدا من هذا التاريخ يتجه الحجاج
الى جدة ، أما الحجاج الراغبون فى زيارة المدينة (المنورة) مرة أخرى فقلبيهم المكوث
لدة حوالى ثلاثة أسابيع لحضور احتفالات محرم بمكة المكرمة - (مختصر عن بيرتون) .
(٤) يعلق الصبار المجفف هنا - كما فى مصر - كالتماسيح المجففة كطلسم للوقاية
من الأرواح الشريرة . . . ويعلق الصبار فى الهند لمنع دخول البعوض . . . الخ -
(بيرتون) .

للفقراء قد نزعَت من أماكنها وبدت مقابر الأجداد وكأنها قد تعرضت لغزو ابن آوى • وقد قرأ عبد الله الفاتحة على أرواح أجداده وذرفت عيناه الدموع وأسرع بى مبتعدا •

وأول قبة زرناها تغطى قبر عبد الرحمن بن أبى بكر وهو شخصية يوقرها السنة والشيعة على سواء • وقبره عبارة عن منصة بسيطة مغطاة بقماش عادى • وبعد ان دعونا له ووزعنا قروشاً قليلة على الحراس والمتسولين عبرنا الممر الرئيسى لنجد أنفسنا عند باب قبة مقامة على قبر خديجة (رضى الله عنها) الزوجة الأولى لمحمد (صلى الله عليه وسلم) وكان قبرها مغطى بقماش أخضر وقد زين قبرها بأبيات من الشعر الدينى ، والى الخلف منه بقليل رأينا قبة أخرى تغطى قبر الست آمنه أم الرسول (صلى الله عليه وسلم) (٥) وقد أرجع بوركهارت حالة القبر المتدهورة لما قام به السلفيون (الوهابيون) المتشددون ، الا أن القبر - الآن - قد أعيد بناؤه وفقاً للأسلوب المعماري الحجازى غير المكلف ، وقد أتت امرأة عجوز ثرثارة الى أقصى حد الى باب المقبرة ودعوتنا للدخول ووجهت دعواتنا وابتهاالاتنا ثم رشت ماء الورد على وجهى ، ولما طلبت جرعة باردة أعطتنى صحناً معدنياً به ماء له رائحة المصطكى القوية ، وطلبت منى - بجدية - أن أشرب وأنا جالس • وقد أخبرتنا أن هذا القبر خاص بامرأة واحدة تزوره كل مساء تتلقى مساعدات المؤمنين وتصلى وتكنس الأرضية وتنفض الأثاث وقد تركنا خمسة قروش لهذه السيدة المحترمة ومنحنا العجوز الثرثارة شلناً آخر ، وقد اضطررنا هذه الشمطاء للدفع مرة أخرى بأن أشارت لبعض المتسولين اشارة مؤداها أن حاجاً ثرياً قد دخل المعلا (بضم الميم وتشديد اللام) وقد اضطررنى الحاحهم للخروج من المكان المبجل •

ولما غادرنا جنة المعلا عدنا نحو مكة (المكرمة) وتوقفنا عند الجانب الأيسر من الطريق عند مبنى متواضع يسمى مسجد الجن • وهنا نزلت السورة الثانية والسبعون من القرآن الكريم بعد مبايعة الجن للنبي (صلى الله عليه وسلم) ، وهبطنا عدة درجات - لأن هذا المسجد مثل كل المواقع القديمة فى مكة اما منخفض عن سطح الأرض أو مرتفع عنها - ودخلنا مساحة صغيرة تحوى أزياراً أو قللاً للشرب وركناً خاصاً

(٥) ذكر بوركهارت أن قبر آمنه Umna كأم للرسول (صلى الله عليه وسلم) فى مقبرة المعلا بمكة ، وكل الأدلاء (المزورين) يوافقون على الموضع • وبعض المؤرخين يذكرون أنها دفنت فى الأبواء Abwa ••• - (بيرتون) •

وهو الموضع الذى كتب فيه محمد (صلى الله عليه وسلم) لأبى مسعود Abu Mas'ud خطابا بعد بيعة الجن • وثمة سلم (درج) ثان داخل من حجر يؤدى الى مصلى صغير كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد تعود الصلاة فيه ، وتلقى الوحي من جبريل (عليه السلام) • وبعد أن صلينا ركعتين وتصيب منا العرق مدرارا كما لو كنا فى حمام روسى دفعت قروشا قلائل وغادرت المبنى وأنا راض عن مغادرتى اياه •

ووجدنا بعض الصعوبة فى حث حميرنا على السير فى زقاق الحجر المزدهم ، وسرعان ما وصلنا لبيت النبى الذى عاش فيه مع السيدة خديجة • وهنا كما يقول بوركهارت رأت فاطمة الزهراء النور لأول مرة (ولدت) ، وهنا - وفقا لما يقوله ابن جبير - ولد الحسين والحسين (رضى الله عنهما) ، ونزلنا عن الحمير عند المدخل وهبطنا سلما (درجات) عميقة لنجد أنفسنا فى صالة رحبة مقنطرة (ذات عقود) ذات منظر أفضل بكثير من سائر مزارات مكة • وفى الوسط يوجد مختلى Closet لا يتخذ شكل الخيمة مغطى بقماش أخضر مذهب ثمين ، ويحرس الباب بواب ضارم لم يفلح بعض الزوار المحترمين - بكلماتهم الرقيقة - فى جعله يفتح لهم لكن كلمات هامسة من عبيد الله حلت المشكلة ، وقد جعلونى انبطح انبطحا كاملا على بطنى لأقبل حجرا أسود ، يقال انه يمثل الشق الأسفل لمطحنة (رحاية) السيدة فاطمة ، وشو مثبت فى بطن حوض من المادة (الحجر) نفسها • ومن ثم عدنا الى ركن وصلينا ركعتين فى الموضع الذى تعود الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يصلى فيه النافلة •

ثم ركبنا مرة أخرى عائدين للبيت وفى الطريق مررنا عبر سوق الرقيق وهو شارع كبير مسقوف بالحصير ومزدهم بالمقاهى ، وجلست البضائع (الجوارى والعبيد) فى صفوف موازية للجدران ، وكانت الجوارى الحسان يشغلن مصاطب عالية ودونهن (على مصاطب أقل ارتفاعا) تجلس الجوارى الأدنى منزلة ، وأدنى منهن يجلس العبيد الصبية • وكان الجميع ، عبيدا وجوارى يلبسون ملابس مبهجة من موسلين قرنفلى ، أو ذى ألوان فاتحة مرحة أخرى، وتضع الجوارى - على رؤوسهن - أقمشة تغطية الرأس ، لا يعقدنها • وقد بدا جميع العبيد والجوارى سعداء تماما ، ويضحكون بصوت عال ويتحدثون لغات غير معروفة ويداعبون المشترين حتى أثناء المساومة على الشراء ، وقد تكون هذه السعادة البادية للمعيشة الرغدة الجديدة التى لم يألوها قبل ذلك •

أو قد تكون نتيجة وصولهم لمكان آمن بعد أن قطع بهم تجار الرقيق رحلات برية مفزعة واجتازوا بهم البحر . لقد كان من بين الجوارى بعض الجالويات Gallas الجميلات ، وبعض الحبشيات الجميلات ، وأفريقيات على درجات متفاوتة من البشاعة من الصوماليات (وهو جنس نصف عربى) الى السواحيليات الشبيهات بالقردة قبيحة المنظر وأعلى سعر سمعته لجارية هو ستون جنيها استرلينيا . وهنا تأملت فكرة توجيه ضربة قاضية - إذا اسعف الحظ - لهذه التجارة التى تنخر فى مؤسسات شرق افريقيا وتلحق بها الضرر . وأسعدتنى هذه الفكرة - فكرة أن يفكر حاج متواضع يتأمل المشهد من فوق ظهر حماره فى فكرة كهذه قد تكون بداية لالغاء هذه التجارة الضارة الغاء تاما .

ترى ماذا كان سيكون مصير ذلك الحاج اذا عرفت جموع المزدحمين فى سوق الرقيق نواياہ ۱۹

ومررنا بسوق كبيرة تسمى سوق الليل فرأيت قصر محمد بن عون شريف مكة السابق ، وكانت الفخامة غير المتقنة تتجلى فى المبنى اذ كانت الشرفات الضخمة تبرز من الجدران الشامخة المشيدة من أحجار مختلف ألوانها وانشاءات متشابكة ذوات فتحات Claire-Voies ولصاحب القصر مكانة رفيعة بين البدو ويخشاه أهل مكة لنظراته القاسية (٦) ، وشجاعته وغدره وقد وصفوه لى بصفتا قاسية ، ولكن السيد كول Cole الذى يعرفه شخصيا قد وصفه بأنه شخصية قوية يتسم بالكرم وأنه غير متعصب . ويبدو أن لديه بعض الأفكار عن الدولة التى يجب أن تنضوى تحت لواء الحاكم hedge in a ruler (٩٩) . وقصوره فى مكة المكرمة ، وكذلك قصوره فى جدة التى تحولت - الآن - الى وكالات هى المباني الوحيدة فى المنطقة التى يمكن أن توصف بأنها أميرية ، وهو الآن سجين الدولة فى استانبول ، ويدعو البدو - عبثا - لعودته .

وفيما يلى نذكر بايجاز المواضع الأخرى التى يقصدها الزوار - للبركة - فى مكة المكرمة .

١ - نطق النبى :

وهو مصلى صغير فى زقاق الحجر ، وقد اتخذ هذا الموضع اسمه من أن النبى (صلى الله عليه وسلم) بينما كان يطرق باب أبى بكر ، نطق

حجر فحيا النبي وأخبره أن صاحب الدار غير موجود ، وهذا الحجر المعدنى المدهش أسود يميل للاحمرار ، يبلغ طول كل بعد من أبعاده قدما ، وهو مثبت فى جدار على ارتفاع أعلى من رأس الرجل ، ولهذا الحجر خدم يقومون عليه ، وقد بسط المتسولون اللحوجون - كما هى العادة - مناديلهم على جانبى الطريق .

٢ - مولد النبى :

والمقصود موضع ميلاد النبى (صلى الله عليه وسلم) وهو مصلى صغير فى سوق الليل غير بعيد عن قصر محمد بن عون . وهو أدنى من المستوى الحالى للأرض ، وفى وسط هذا الموضع ما يشبه الخيمة ، ويقال انها (أى الخيمة) تغطى حفرة فى الأرض جلست آمنة (أم النبى) عليها لتضعه .

٣ - وبالقرب من مولد النبى يوجد شعب على Sha'ab Ali وفيه مصلى صغير تحت مستوى الأرض . وهنا - كما فى مولد النبى - تتم الزيارة ويعقد « المولد » سنويا .

٤ - وبالقرب من منزل (السيدة) خديجة ومصلى نطق النبى يوجد موضع يسمى المتكا Muttaka حيث كان النبى (صلى الله عليه وسلم) يتكىء اذا ألم به التعب . ويتردد عليه المؤمنون كثيرا أكثر من ترددهم على الأماكن آنفة الذكر ، ويقول البعض انه عندما ظهر الشيطان للنبي (صلى الله عليه وسلم) على هيئة رجل عجوز وحاول أن يوقع النبى فى الخطيئة مؤكدا له (أى للنبي صلى الله عليه وسلم) أن الصلاة فى المساجد قد تم ابطالها ، فان هذا الحجر أطبق على الشيطان وأجبره على الفرار .

٥ - مولد حمزة : وهو مبنى صغير عند باب العمرة بالقرب من مقبرة الشبيكة Shabayki Cemetery وكان يوجد هنا بازان Bazan أو قناة تجرى تحتها عين حنين Ayn Hunayn أو بركة ماجد Birkat Majid ويشكك كثيرون فى أن حمزة (رضى الله عنه) قد ولد هنا .

ولابد أن القارئ قد تعب الآن من متابعة أماكن الزيارة هذه .
كما تعبت أنا .

وقبل مغادرة مكة (المكرمة) دعانى على بن يس الزمزمى قسرا ،
لأتناول الغداء عنده ، ليدلل على أنه يستضيف عليه القوم ، وكانت هذه
الدعوة - فيما يرى الولد محمد - لهدف واحد هو اثبات علو شأنه .
لقد دعينا على عجل ذات يوم فى حوالى الساعة الثالثة عصرا لمنزل
الشيخ على وهو مبنى كبير فى زقاق الحجر ، فوجدناه غاصا بالحجاج
الذين لم نجد صعوبة فى أن نتعرف - من بينهم - على رفاق السفر :
الألبانى العجوز المشاكس وعبدہ الأحمق . وقد قابلنا على بن يس على
درجة السلم وقادنا الى غرفة علوية حيث جلسنا على الكنب (الديوان)
واستعدنا للغداء بتناول القهوة وتدخين الشيشة ، وسرعان ما هب
الجالسون فى نصف دائرة واقفين لاستقبال الأغا eunch الذى يقيم
فى موضع ما بالمنزل . والأغا شخص مهم نظرا لمرافقته لبعض السيدات
من الطبقة العليا فى القاهرة واستانبول . وسرعان ما أفسحوا له أفضل
الاماكن وقدموا له - دون تردد - أفضل شيشة فقبلها . لقد جلس الأغا
بوقار وعظمة وأجاب بديبلوماسية عن بعض الأسئلة المعينة الغامضة
عن السيدات وتمرر على شفتيه الغليظتين قطعة عنبر بلون الليمون .

لقد تم تقديم العشاء لنا فى أطباق صينية وصينيات نحاسية كبيرة
يبلغ محيطها قرابة الأقدام الستة مزخرفة بزخارف ونقوش عربية فوق
كرسى معتاد مزين السطح بعرق اللؤلؤ وقوائمه من خشب الصندل
وأدوات المائدة من مادة كالصينى لها منظر نظيف ، وقد بدأنا بتناول
مسلوقات مختلفة ، مسلوق السبانخ ، مسلوق البامية وحساء خضروات
مغذ ، ولما جمعت أطباق هذا النوع من الطعام غمسنا أيدينا فى أطباق
البريانى Biryani : شرائح اللحم المقلية بالزبد ، ومحشى أوراق
العنب بلحم الضأن ، والكباب أو اللحم المشوى ، بالإضافة للسلطات من
الخيار المنعش ثم تم تقديم أطباق البطيخ المقطع .

أما الخبز فكان مدورا على النسق الشرقى لكن مذاقه كان
رائعا وأفضل كثيرا من الخبز الهندى المعروف بالشاباتى Chapati
أما الماء فكان معطرا بالمصطفى (مستكة) وبعد ذلك أتت الكنافة المحلاة
بعسل النحل وقد رش فوقها مسحوق السكر ، والتفاح والسفرجل
والمهلبية المضاف لها راحة الحلقوم Rahat al Hulkum
غالى الثمن لأنه يجلب من استانبول . وقد وضعت الفاكهة فوق المنضدة :
أطباق مليئة بحبوب الرمان والتمور ذات المذاق الرائع وانتهى العشاء
بأطباق الأرز والزبد وقد تناولناه بملاعق خشبية .

ويجيد العرب الفن الفرنسى المبهج المتمثل فى مد (اطالة) فترة
العشاء . فبعد أن تغسل يديك تجلس وتطرح « فوطه » مزخرفة على
ركبتيك وتغمس يدك فى طبقك المفضل بعد أن تقول : « بسم الله » وتغير
الأطباق كما تشاء ، ولك أن تمص أصابعك بين الحين والآخر كما يفعل
الصبية « بالمصاصة » ويمكنك أن تدس لقمة دسمة فى فم صديقك .
وبعد أن تشبع لا تجلس وإنما عليك أن تقول : الحمد لله ، وتتنحى جانبا
وتغسل يديك وفمك بالصابون وتبدى انطباعا أنك امتلأت والا عرضوا
عليك أن تأكل المزيد ، ثم تدخن شيشتك وتشرب قهوتك وتصبح فى حالة
« كيف kayf » وليس من عادة الناس فى هذه البلاد أن يجلسوا
معا بعد تناول الطعام فسرعان ما تنهى صلاة العشاء كل تجمع . وقبل
أن ننهض لاستئذان على بن يس فى الانصراف جرى ولد فى الغرفة
وأبدى كياسة طفولية تعنى فى الشرق طلب هدية فدستت دولارا فى
يده ، فلم يستطع اخفاء فرحه عند رؤيته . حقا انه مكى صغير ! لقد
راح يصيح : « ريال ! انظر يا جدى .. هذا الأفندى الطيب أعطانى
ريالا » فلمعت عينا الرجل العجوز بالعاطفة . لقد رأى مدى السهولة
التي سلمت بها النقود للولد ، وراح يأمل ألا تكون هذه القطعة النقدية
هى الأخيرة التي تفلت من يدي ، فقال صائحا : « حقا انك طيب أيها
الشاب وراح يدعو بحماس : « الله يحقق كل آمالك ! » وربت على ظهرى
دلالة قبوله الدولار الذى أعطيته لابن ابنه .

ولم ار على بن يس أبدا بعد تلك الامسية لكننى أعطيت للولد محمد
مبلغا لتقديمه له لقاء خدماته لنا .

الفصل الرابع والثلاثون

الى جده

انغماس الحجاج فى امور الدنيا بعد اتمام حجهم - عودة الى الصحراء - الحاج عاكف عربى يعرف لغات عديدة - العلمين - الشيخ نور سيفنى لجده - مقارنة بين تصرف الحجاج المسلمين بعد انتهاء المناسك وتصرف الكاثوليك والكلفنيين بعد اداء الصلوات - عن بوركهارت - حده (بالحاء) مشكلة مع صاحب الحمار - مصرى يتدخل لحل المشكلة - مقهى تركى - باب مكة - مدخل جدة - ولاح البحر - اللجوء للقنصلية الانجليزية لتدبير مال - طهارة يد المسؤولين الانجليز فى القنصليات واهمية ذلك - كيف يكسب الدبلوماسى الاحترام فى البلد الذى يعيش فيه - تاخر رواتب العسكر واثار ذلك - عمر افندى عاشق القاهرة - مجنون فى جده - خالد ابن مسعود - عبد الله بن سعود - قبر حواء - العودة للسويس *

لقد أعلن الانغماس فى أمور الدنيا والتنعيم بمسراتها عن نهاية شعائر الحج ، فقد عاد كل المؤمنین الآن مبرئين من الذنوب كيوم ولدتهم أمهاتهم ، فعمد كثيرون منهم الى الرحيل صوب الجنوب والى فتح حسابات جديدة (١) فالإيمان لا يعنى بالضرورة الانضباط الكامل * وربما كان المسلمون فى هذه الحالة متساوين مع الكلفنيين (٢) الذين يرتكبون الآثام بحماسة شديدة يوم الاثنين بعد أن يكونوا قد استغرقوا فى الصلوات يوم الأحد ، وكالأروام الكاثوليك ينكصون على أعقابهم فى آثام جديدة معتمدين على مبدأ الاعتراف ومبدأ الأعمال التكفيرية (لتكفير الخطايا) (٣) ، فالأمر لا يختلف بالنسبة للمسلم الذى يطهر روحه بالطواف والسعى ثم يعود لارتكاب الآثام ، لكن لابد أن نلاحظ أنه بين المسلمين - كما هو بين المسيحيين - هناك استثناءات كثيرة ملحوظة من هذه القاعدة ، فكثيرون من أصدقائى ومعارفى يعتبرون أن بداية قائمهم أول نظرة على الكعبة المشرفة ، بداية لصلاحهم واستقامتهم *

(١) يقصد ارتكاب آثام جديدة مادامت الآثام القديمة قد غفرت - (المترجم) .

(٢) اتباع كلن Calvin - مذهب بروتستانتى - (المترجم) .

(٣) أى ارتكاب آثام جديدة بعد الاعتراف بنيتها الاعتراف من جديد ، مادام الاعتراف يظفر الذنوب - (المترجم) .

أما وقد انتهى أسبوع المسلمين المقدس ، فلا حاجة لى للبقاء فى مكة (المكرمة) فقد اتخذت قرارا بالعودة للقاهرة ، لأسباب سبق ذكرها ، وذلك لاستجم هناك لفترة ، قبل أن أبدأ رحلتى الثانية بالتوغل فى المناطق الداخلية عبر المويلح Muwailah (٤) .

وأهل مكة مولعون بالهدايا الصغيرة مثلهم فى ذلك مثل الراهبات ، فقد ودعتنى الست « الكبيرة » وداعا حارا وأوصتنى بابنها الذى كان عليه مرافقتى الى جدة ، ووضعت يديها بمودة - لكن بحزم - على يد الهاون النحاسية ، والهاون اللذين طالما حملت فيهما بعينين راغبتين فى اقتنائهما .

وبمجرد ان استأجرنا جملين بخمسة وثلثين قرشا - دفعت نصفهما مقدما (عربونا) - أرسلت صناديقى الثقيلة مع الشيخ نور (الذى أصبح الآن الحاج نور) ليسبقنى الى جدة (٥) . وكان على عمر أفندى أن ينتظر فى مكة حتى يبدأ أبوه فى الالتحاق بقافلة جمال ، أما هو فيرغب فى ركوب حمار ليلحق بى فى ميناء جدة ويعود الى مدينة القاهرة التى يحبها ولا ييغى سواها . وودعت كل أصدقائى وداعا حارا وعانقت الحجاج الأتراك وغادرت أنا والولد محمد البيت ، وتبعنا عبد الله المكتئب سائرا على قدميه خلال شوارع مكة (المكرمة) وودعنى - بدون عناق - فى حى الشبيكة Shabayki .

ولما وصلنا لمسهل رحب شعرت بفيض من السعادة كُننى سجين خرج من زنزانته ، فحرارة الشمس جددت حياتى وملأتنى نشاطا ، وكان هواء الصحراء عطرا ، وكان وجه الطبيعة الودود كابتسامة صديق قديم عزيز على نفسى . وتأملت قافلة الحج الشامى عن يمين طريقنا دون أسف على فراقها ، ذلك الأسف الذى يقترن عادة بالفراق .

وليس من هدفى على وجه التحديد وصف الطريق الذى سلكناه هذه الليلة ، فقد أعطى بوركهارت عن هذه المنطقة لقرائه معلومات كاملة . ولما غادرنا مكة (المكرمة) هبطنا لطريق مباشر يمتد جنوب وادى فاطمة واجتزنا مسطحا - محاطا بالتلال - فى حوالى ساعة ، ثم دخلنا واديا باجتياز درجات حجرية وعرة متعرجة ، أحجارها متقلقلة خطرة - بغية تيسير أمر المنحدر على الجمال والدواب المحملة . وفى منتصف الليل

(٤) لم تنفذ خطتى الثانية هذه بسبب متاعب صحية جعلتنى أظيل بقائى فى مصر حتى تلتقيت أمرا بالعودة الإلزامية للهند - (بيرتون) .

(٥) الإيجار المعتاد هو ثلاثون قرشا لكنه يرتفع ليصبح فى موسم الحج دولارا فى الغالب أما إيجار الحمار فيتراوح من ريال الى ثلاثة ريالات - (بيرتون) .

تقريبا عبرنا واديا محاطا بالتلال كان تارة مغطى بالرمال العميقة .
وتارة أخرى يابساً مغطى بالطين اليابس ، وأخيراً - عند الفجر تقريبا -
رأينا سهل جدة البحرى .

لقد التحق بجماعتنا - بعد مغادرتنا مكة (المكرمة) بفترة يسيرة -
مسافرون آخرون ، وحتى المساء وجدنا أنفسنا بحكم النظام لا نسير فرادى
فى الطريق ، وكانت المقاهى ، وأماكن الاستجمام كثيرة على الطريق ،
فكنا نتوقف كل خمسة أميال لنريح أنفسنا وحميرنا .

وعند غروب الشمس صلينا صلاة المغرب بالمقرب من مقر خراصة
تركى ، حيث أمدنى أحد العساكر - كرماً منه - بماء للوضوء .

وقبل حلول الليل بادرنى بالحديث رفيق عجوز أعور ، ذو جبين ذابل ،
يحصن نفسه خلف عبوسه وتقطيعه ولحيته المدببة ، وكان يرتدى
ثياباً قدرة وكان يركب - مباعداً ما بين رجله - حماراً ذابلاً مثله . لقد
حدثنى بالفارسية فلما هزرت رأسى ، حدثنى بالعربية ولما لم يتلق رداً ،
نطق الهندوستانية السليمة ، ولما فشل فى الحصول على استجابة منى نطق
بلغة الباشتو ، فاللغة الأرمنية ، فالانجليزية فالفرنسية فالإيطالية .
وأخيراً ، لم أستطع أن أظل مطبق الشفتين أكثر من هذا ، فحاورته ، وعند
كل منعطف فى الحوار كان يركز على سؤال واحد هو : اذن من أى البلاد
أنت ؟ أو على أى مذهب أنت ؟ وقد رددت عليه بالفارسية ، ومن خلال
الحوار عرفت أنه مرشد ومرافق وخادم للسياح الشرقيين ، وإنه زار
انجلترا وفرنسا وإيطاليا ورأس الرجاء الصالح والهند وآسيا الوسطى
والصين . ومن ثم فقد رحنا نتحدث بالانجليزية التى سيتحدث الحاج
عاكف - وهذا هو اسمه - بها جيداً لكن مستخدماً عبارات المرشدين .
لقد أساء عبد الله اختيار طريقه للتعلم ، ولم يكن أقل مدعاة للدهشة أن
تسمع عبارات انجليزية على شاكلة « Come p, Neddy » وفرنسية على
شاكلة Cré nom d'un boudet فى الحجر (قبر اسماعيل ؟) وحيث ولد
الرسول (صلى الله عليه وسلم) وفى الحرمين الشريفين .

وفى حوالى الساعة الثامنة مساءً عبرنا العلمين Alamayn
وهو الموضع الذى يحدد الأراضى المقدسة فى هذا الاتجاه . ويقع
« العلمين » على بعد حوالى تسعة أميال من مكة (المكرمة) وبالمقرب
منهما يوجد مقهى ومصلى صغير يعرفه الناس باسم سبيل أغا ألبط (؟)
Agha Almas . وفى الطريق - كلما توغل الليل بنا - كنا نقابل قوافل
جمال بعضها يحمل شقاديذ وأخرى تحمل عوارض خشبية ضخمة

وغيرها تحمل أكياس بن وغلل وبضائع . لقد بدأ النوم يداعب جفون رفاقي بشدة ، وكان الولد محمد قد تعلق على خاصرة حماره فى وضع مثير للضحك تماما .

وعند منتصف الليل تقريبا وصلنا الى مجموعة أكواخ تسمى حده Haddah . وقد جعلها الرحالة على بك (العباسى) على بعد ثمانية فراسخ من جدة (٦) وعند الحد (الميقات) الذى يمثل محطة التوقف الوسطى يتحتم على الحجاج ارتداء ملابس الاحرام ، أما المسافرون من غير المسلمين الى الطائف فيتم ابعادهم عن طريق مكة الى طريق آخر يمتد الى الشمال من عرفات . لقد كانت حده Haddah (بالحاء) مجرد مجموعة من الأكواخ والعرائش من جريد وبوص وفروع أشجار . وهى تمد الحجاج بالقهوة والماء . ويتحدث المسافرون - بفزع - عن شدة حرارتها نهارا . وقد قارنها على بك (العباسى) الذى زارها مرتين بالفرن . والمنطقة هنا تنحدر بالتدرج تجاه البحر (الأحمر) فالتلال تتراجع ، وكل ظواهر الطبيعة تشير الى مغادرتنا هضبة مكة . لقد توقفنا للراحة فى جدة مدة ساعة وحصلنا على حصير وماء للشيشة وغير ذلك من الضروريات من مقهى ، وأعدنا سلة ملأناها بالمؤن كهدية للكبيرة وبمجرد انتهائنا من تناول هذا العشاء الفاخر انطرحنا لنأخذ قسطا من نوم غير عميق .

وبعد انقضاء نصف ساعة ، وضعت البرادع على الحميز ، وهزرت الولد محمدا بصعوبة وحثثته على الركوب ، وكان معتادا فى مثل هذه المواقف أن يقول قولته الأثيرة : « ميت من النوم » ، وتقدمنا - بالكاد - ساعة ثم وصلنا لمقهى صغير آخر فطرح الولد محمد نفسه على الأرض ، وأعلن أنه من المستحيل أن نتقدم أكثر من ذلك . وقد سبب هذا بعض الاضطراب ، فقد كان صاحب الحمار فتى بدويا سليطا عدوانى السلوك ، فقد خاطبنى عدة مرات بصفاقة آمرا اياى ألا أضرب حماره ، وألا أدق بعقبى قدمى على جانبيه . فعنفناه بازدياء فلزم الصمت . لكنه - الآن - وقد ظن أننا فى قبضته ، فقد أقسم أن يأخذ حميره بعيدا ويتركنا عرضة للسلب والقتل ، لكن ضغطة على رقبته وطرحه على الأرض جعلتاه لا ينفذ خططه ، فعض يده بغيظ عاجز وذهب بعيدا مهددا إيانا بأن يشكونا

(٦) كان الاحرام زمن ابن جبير يتم فى الغريان Al-Furayan وهى محطة مهجورة وتقع على بعد ساعتين من

لمحافظ جدة فى الصباح • وعندئذ اعترض أحد المصريين فى جماعتنا على التهديد واستعان بقول اللغوى القديم ، بالإنجليزية « بالله ، هيا تحرك فانت لن تغنم شيئا هنا » وقال بأسلوب فكه : « يا الله Yallah قوم وركب ، انت بتضيع وقتنا ، انت ح تنام فى الصخراء والا ايه ! » فقلت له : « يا عم لا تزود الكلام - هذا فضول (٧) ، وكلمة فضول تساوى بالانجليزية Impertinent بمعنى الحديث خارج الموضوع ، ورحت للجانب الآخر متثاقلا وتظاهرت بالنوم بينما المصرى المهدد يحث الآخرين على جعلنا نتحرك • والمسألة التى تبلورت فى ذهن الولد محمد الذى قام من نومه على صوت النزاع - هى أنه همس بلهجة تنم عن الفزع : « أتعرف ؟ • من يكون هذا الشخص ؟ » وأشار الى ، فأجاب الآخرون : « ولماذا لا ؟ » فقال الولد محمد : « حسنا ، ذات يوم كان رجال عتيبة سيقطلوننا فى ممر الزريبة ، فماذا تظنون أنه فعل ؟! » فاندھش المصرى قائلا : « والله ! لا نعرف ؟! ماذا فعل ؟ » فقال الولد محمد بصوت خفيض ساخر : « لقد طلب غداه » • وكان فى هذه الإشارة الساخرة ما فيه الكفاية ، فقد ركب الآخرون وتركونا للننام يهدوء •

لقد أسهبت فى ذكر هذه المغامرة الصغيرة - لأبين أن التبجح أو التظاهر بالشجاعة يمكن أن يؤتى ثماره فى شبه جزيرة العرب • كما أن هذه الحكاية تعد درسا يتعين على كل مسافر فى هذه المنطقة أن يضعه فى اعتباره فالتناس على استعداد دائما لأرهابه بقصص مخيفة ليست أكثر من مجرد أشباح للجبن • أما سبب الأريحية التى أبدأها المصرى فهى أنه إذا فقد واحد من المجموعة ، فإن الأحياء الباقين سيتعرضون للمشاكل • لكننا كنا فى هذا المكان - كما اعتقد - آمنين كما فى مكة ، رغم اعلان رفاقنا أنه غاص بالمخاطر (٨) • ففى كل ليلة - أثناء موسم الحج - تخرج فرقة من حوالى خمسين فارسا لحراسة الطريق ، كما كنا جميعا مسلحين تماما ، وبدأت جماعتنا هائلة بحيث يصعب - على قاطع طريق - ضربها بقوة • أما وقد انتهت فترة نفاستنا القصيرة ، فقد ركبنا وتابعنا مسيرنا المتعب هابطين فى الوادى الرملى حيث كانت الحمير البائسة تغوص الى ما فوق الحافر • وفى الفجر وجدنا رفاقنا قد وصلوا الى مقهى صغير « قهوة تركى » • وهنا تبادلنا الأدوار ساخرين • لقد صاح المصرى : « حسنا ، لقد استرحنا هنا وصلينا منذ ساعة ، فأجبناه

(٧) ربما يقصد « بلاش كلام فاضى » أى لا معنى له - (المترجم)

Infested with Turpins & Fradiavoles.

(٨) النص :

قائلين « روح (اذهب) كل فول مدمس ، (٩) ، فماذا يعرف الفلاح المصرى عن الشهامة ! » وقد جعلنا الفتى البدوى اللفظ يتفاعل بالتدريج بغمرة بسيل من الدعايات والنكات الصغيرة ، بطلبنا منه أن يبلغ سلامنا الى محافظ جدة ، وباستدعاء الحمير مطلقين على الواحد منها اسم قبيلته البدوية ، فأجاب بتوبيخ غبى سفيه جلب له السخرية فاستغرق صاحب المقهى فى الضحك ، فربما كان من النادر أن يلتقى بأشخاص ظرفاء (مثلنا) .

وبعد مغادرتنا « قهوة تركى » بوقت قصير وجدنا آخر نتوء صخرى للمرتفعات التى تبدأ فى الانخفاض نحو سهل جدة . لقد كان آخر عهدى - لفترة - بالبرارى الخطرة ذوات التلال - التى أساء للصوص سمعتها - والرمال . فرحت أتأملها وقد غمرتني السعادة لنجاتي . لقد كان أمامنا مسطح الحديد المعتاد فى هذه المناطق : ضارب للبياض بملح ، وأسمر مصفر بالأحجار والحصى ، لكن الأسوار البيضاء البعيدة التى يكمن خلفها البحر الحبيب ، قد خففت من حدة المنظر وجملته . ولم تر العين شجرة ولا بقعة خضراء ، ولم يكن ثمة ما يشغلنا عن تأملنا لهذه الصفحة الفيروزية على البعد . لقد اجتازت الحمير الصغيرة وهى تعرج هذه المنطقة ولازالت تتسم بالحوية رغم ما اعتراها من تعب . وسرعان ما تبينا ملامح جدة - المآذن ، والتحسينات - التى حققت شهرة كبيرة منذ ضربت مدافعها البائسة (غير القوية) آلاف السلفيين (الوهابيين) بقيادة عبد الله بن سعود سنة ١٨١٧ (١٠) ، كما رأينا قنة صغيرة خارج الأسوار .

(٩) وجبة مصرية مفضلة ، ينظر لها باحتقار فى شبه جزيرة العرب - (بيرتون) .

المترجم : لاحظت أن وجبات بعض الشعوب العربية تستخدم فى شبه الجزيرة العربية أداة للسخرية ، فالفلسطينى (حمصانى - بتشديد الميم) أى أكل حمص ، والمصرى (فوال - بتشديد الواو ، أو مدمس) أى أكل فول ، أما (العرقى - بفتح العين والراء) فهو منقوع البلح المتخمّر ذو المفعول الشديد (أجارك الله) فيشار به للعراقى ... وهكذا - (المترجم) .

(١٠) هاجم عبد الله بن سعود جدة سنة ١٨١٧ بخمسين ألف رجل ، وأصر على إزالة أعمال المشركين uafir Works خاصة الأسوار والأبراج ... وقد وحل السلفيون (الوهابيون) فى النهاية ولم يستطيعوا الاستيلاء على جدة التى يمكن لبطارية واحدة من بطارياتنا الصغيرة أن تستولى عليها فى ساعة ، ومنذ ذلك الوقت لا يكف أهل مكة عن الفخر على أهل المدينة لضعف استحكامات مبنائهم « ينبع » - (مختصر تعليق بيرتون) .

لقد بدأت الشمس تسطع بقوة ، ولم تكن آسفين عند دخولنا باب مكة Bab Makkah في حوالى الساعة الثامنة صباحا بعد أن مررنا بمجموعة من العرائش والاكواخ والمقاهى والقبور والتلال الرملية التى تشكل المناطق الواقعة شرق جدة . لقد قطعت هذه الحمير المدهشة مسافة تتراوح بين أربعة وأربعين وأربعة وستين ميلا ، وكنا قد سرنا احدى عشرة ساعة سيرا فعليا ، وتوقفنا حوالى ثلاث مرات ، وكان مسيرنا ذات ليلة - بشكل عام - فى رمال عميقة . لقد عبرت هذه الحمير مدخل جدة المقنطر ، وهى تجرى خبيبا برشاقة تكاد تماثل رشاقته ساعة مغادرتها مكة .

وكان الشيخ نور قد تلقى أمرا منى بتدبير محل اقامة لى فى كوم المرجان الفسيح in a vast pile of madrepora (؟؟) (المعلومات الحديثة تفيد أنه مرجان غير متحجر أو غير أحفوري - وكان هذا الموضع فى يوم من الأيام قصرا لحمد بن عون ، وتحول الآن الى وكالة Wakalah وبدلا من أن ينفذ الشيخ نور ما كنت طلبته منه ، فانه - كالهنود - قام بتهيئة اقامة فى معسكر ذى طابع غجرى فى الميدان المطل على الميناء . وبعد اجراء التعديلات المطلوبة ، وجدت مكانا يمكن أن يناسبنى وفى أقل من ساعة تم كنسه ورشه بالماء وفرشه بالحصير ، وأصبح مريحا بقدر ما تسمح الامكانات . وقد شعرت وأنا فى جدة أنني قد عدت لموطنى مرة أخرى ، فقد كان منظر البحر باعثا على النشاط . فـالهنود (١١) (؟؟) لم يبعدوا كثيرا عن الصواب عندما احتفظوا بالأسرى الانجليز بعيدا عن المحيط قائلين ان الانجليز جنس برمائى ، الموج موطنه .

وبعد أن استرحنا فى الوكالة يوما ، طالب الجمال وصاحب الحمار بما لهما من نقود ، ولم يكن معى أكثر من عشرة بنسات فكان من الضرورى صرف الحوالة التى قدمتها لى الجمعية الجغرافية الملكية من نائب القنصل البريطانى فى جدة . وقد رأيت السيد كول Cole وكان يعانى من الحمى ، ولم تعجب نظراتى - بأية حال - مترجمه ، وفى الحقيقة لقد كان كل من فى المبنى ضدى . وبعد بعض المراسلات غير المجدية أرسلت بخطاب عاجل للسيد كول الذى قرر - اثر ذلك - مقابلة الأفغانى المزعج (١٢) ، وبعد أن قدمت نفسى باعتبارى ضابطا فى الجيش

(١١) النص : The Maharratas وربما يقصد المهرجات (جمع مهرجا) وقد

لا يكون كذلك - (المترجم) .

(١٢) المقصود بيرتون نفسه - (المترجم) .

الهندي استقبلني استقبالا كريما وعلت امارات الدهشة وجهه، وقد اخبرني نائب القنصل - من بين أمور أخرى - انه خلال مناقشاته مع الأتراك عن امكانية قيام رجل انجليزي بالتسلل الى مكة (المكرمة) كالقطة ، قال لهم ان مواطنيه قادرون على كل شيء ، بما في ذلك الحج الى مكة (المكرمة) وقد وافق المسلمون ادبا متهم على أن الانجليز قادرون على فعل كل شيء لكنهم أنكروا احتمال قيام احدهم بالحج الى مكة خفية . وقد كان السيد كول سعيدا انه ضحك على ذقون الأتراك ، لكن بعد مغادرتي ، كتب لى يقول انه لن يعود لتناول الحديث الذى خضنا فيه مرة أخرى لأن المسلمين ينظرون اليه بجدية كاملة باعتباره موضوعا خطيرا .

حقا انه لأمر يرضى الكبرياء الانجليزية ان يستمر وضعنا الرسمي قويا فى جدة ، فالسيد كول - مثله مثل زميله فى القاهرة - لم يقلل من شأن نفسه بانخراطه فى أعمال تجارية ومصالح مع السلطات (المحلية) ، فقد صمد بثبات أمام اغراءات شريف مكة وعلمه كيف يحترم اسم بريطانيا . ولقد أرجع الراهب هاملتون Hamilton اهمتام الأمير ، للاحترام اللا متناهى الذى يكنه العرب لاستقامة السيد كول وبعده عن ممارسة التجارة - وهذا اطراء رقيق له ، والكاتب محق ، فشرف الهدف (طهارة اليد) لا تضيع هباء بين هؤلاء الناس (العرب) . ان التناقض العام بين اجراءاتنا القنصلية فى القاهرة وجدة يقدم لنا برهانا آخر على ضرورة التدقيق فى اختيار المسئولين الهنود لشغل الوظائف التى تتطلب امانة فى الدوائر الشرقية ، فهم يعيشون بين شرقيين ويعرفون لغة آسيوية واحدة وعادات آسيوية كثيرة ، فالرئيس فى الشرق هو الكل فى الكل ، وقد تعلموا ان يتخذوا لهجة الأمر التى بدونها لا يستطيعون أخذ زمام المبادرة فى الشرق - وهو أمر قد لا يكون موضع تفكير فى انجلترا . فهذا الدبلوماسى الذى تربى فى احضان البلد الذى يعمل به the « home bred » diplomate لا يكون مدكا لآلاف الحيل والمكائد النصوية له فى كل مكان ، لذا فغالبا ما يقع فى ايدي خصومه الماهرين الذين يغطون مكرهم بشكليات الأدب واللياقة التى يفسرونها بأنها نتيجة الخوف أو انها نوع من الخداع - مع مراعاة ان هذا التفسير ينتشر انتشارا واسعا .

وقد قام كتاب محدثون كثيرون بوصف جدة (١٢) . وقد خصص بوركهارت (١٨٤١) مائة صفحة من مجلديه للعاصمة الباشية لتهامة الحجاز . ومؤخرا كتب ماري Mari وشيدوفو Chedufu في الموضوع ذاته ، كما نشر رحلان فرنسيان هما جلينيير Galinier وفري Ferret قوائم بالمواد التجارية المتداولة في أيامهما . وقد رجعا لمصادر كالتى رجع لها باحث الدراسات العربية الشهير م . فريزنل Fresnel . وقد قام مؤلف كتاب « الحياة في الحبشة Life in Abyssinia » بترجمة هذه الأعمال . وقد أخبرنا عبد الكريم الذى كتب سنة ١٧٤٢ أنه كان للفرنسيين مصنع في جدة ، وفي سنة ١٧٦٠ - عندما عاود بروس Bruce زيارة جدة وجد أن لشركة شرق الهند East india Company مركزا تتخذة منطلقا لتوزيع البضائع في المناطق المجاورة ، وقد فشلت في متابعة أية وثيقة قديمة متعلقة بالانجليزية رغم أن أهل الشرق استقبلوهم بترحاب عند بداية نشاطهم في المنطقة .

لقد كانت جدة عندما زرتها في حالة مضطربة بسبب العبور المستمر للحجاج ، وكانت المؤن للسبب نفسه وهو كثرة عبور الحجاج - نادرة شحيحة . والوكالتان الكبيرتان اللتان تفخر بهما جدة ، كانتا مزدحمتين بالمسافرين فلم يجد كثيرون مناصبا من الإقامة في الميادين . وكان ثمة سبب آخر للفوضى وهو حالة الجند ، فالنظام Nizam أو الجند النظاميون لم يتقاضوا أجورهم منذ سبعة أشهر ، وقلما استطاع الجنود الألبان التمييز بين ما يحق لهم امتلاكه وما لا يحق . وأهل الشرق ينساقون - بشكل مدهش - للنظام (للمسكر) ، أما الجيش الأوروبى ، فقد يعتمد على نفسه في مثل هذه الظروف . لكن الباشا يعلم أن للصبر حدودا فراح يبحث - بقلق - عن بعض الخارج للأزمة للمء جيوب جنوده بالمال . لقد كان الأسلوب الشرقى لحل مشكلة متأخرات الجند ، هو أن يقوم الباشا صاحب المقام الرفيع - الذى اعتراه

(١٣) كتب لى السيد كول Cole أنه في سنة ١٨٢٨ تم إبرام اتفاقية تجارية بين بريطانيا العظمى وجدة ، من بين بنودها :
- كل البضائع التى ترد لجدة من الموانئ الانجليزية تجمرك بما يساوى ٤٪ من قيمتها .

- كل البضائع التى يستوردها الرعايا الانجليز من المناطق غير الخاضعة لسلطة الميناء لجمرك بما قيمته ٥٪ .
- كل البضائع المصدرة من المناطق التابعة لجدة يدفع عنها ١٢٪ بعد تخفيض ما قيمته ١٦٪ من سعر السوق بالنسبة لهذه البضائع .
- كل الاحتكارات غير مطلوبة (ممنوع الاحتكار) ٠٠٠ الخ (مقتطفات من تعليق بيرقون) .

الخوف من جنوده - بالإيعاز لجنوده بإطلاق النار على المدينة وسلبها،
ولا شك أن باشا جدة كان ينتظر لهذه الأيام الجميلة بحسرة (١٤) .

وتظهر في جدة كل سمات الموانئ ، ومدن الحاميات العسكرية،
فغير بعيد من الكراكون Karakun (مركز الحراسة أو الحامية
العسكرية) توجد أماكن التهلكة والخلاعة - دلالة على تراخي السلطات
وانحلالها ، فالمفروض أن يعاقب كل خروج عن النظام بالضرب
« بالفلقة » وبالحبس ، وقد تعود حراسى ورفاقى فى الوكالة أن يجلبوا
العرقى Araki فى زجاجات شفافة دون أن يفكروا حتى فى تغطيتها
بخرقة ، وقد عاد المراسل مرتين من مهمات قصيرة وهو سكران .
والأكثر مدعاة للدهشة أن الناس يبدوون غير مهتمين بذلك (لا يعتبرون
هذا عارا) .

لقد وصلت الدورقة Dwarka التابعة لشركة بمبائى للملاحة
البخارية لنقل الحجاج من الحجاز للهند . وكنت لازلت مترددا ازاء
رحلتى التالية ، غير راغب أن أبحر ازاء ساحل البحر الأحمر فى هذا
الموسم دون رفيق ، لكن ذات صباح ظهر على بابى عمر أفندى حزينا
مرهقا يجبر وراءه حمارا زاد عنه رهقا ، فأمددنا بشيشة وكوب شاي
ساخن ، ولما كان خائفا من أن يتبعه أحد فقد دللناه على فجوة مليئة
بالعشب يمكنه أن ينام تحته مختبئا .

وقد تحققت مخاوف هذا الطالب (عمر أفندى) ، فقد ظهر أبوه
فى بكر اليوم القالى وتأكد من البواب أن الهارب موجود فى المنزل
فنادانى بأدب . وبينما كان يغمرنى بفيض من الأسئلة كان عبده الأسود
يحملق بكم فى كل ما فى الغرفة وما حولها ، ومع هذا كان لدينا متسع
من الوقت لتغطية المر بالعشب وغادر الأب العجوز بعد بحث غير مجد
عن ابنه الا أنه على أية حال غمرنا بابتسامة شرسة لا تبشر بخير .

وفى مساء ذلك اليوم ، عدت للبيت قادما من الحمام the Hammam
فوجدت فيه صخبا وجلبة ، فالولد محمد قد تعرض للضرب ويكاد ينفطر
من الغيظ أما الشيخ نور فكان أيضا غير متمالك نفسه من الخوف .
لقد عاد والد عمر أفندى - اثناء غيابى ومعه جمع من الأقارب
والأصدقاء . وسألوا الشاب (الولد محمد) الذى ورط نفسه فى كثير

(١٤) وصف روشيه M. Rochet مناورات الحكومة بهذا الشأن فى الحديدة -
(بيرتون) .

من الاجابات الخاطئة ، فبدءوا فى فتح الصناديق فألقى الولد محمد نفسه عليها باسطا جسمه فوقها متوقعا أنه على استعداد للموت دون فتحها لأن ذلك عار ، وقد تلقى اثر هذا عدة صفعات متفرقة سرعان ما تحولت الى عاصفة من اللكمات ، وفى هذه الأثناء اكتشف طفل صغير متطفل ساق عمر افندى بارزة من مخبئه ، فتم الإمساك بالطالب واقتادوه دون مقاومة منه ، لكنه راح يقسم بهدوء أنه لن يترك فرصة للهرب الا اهتبلها . وقد تفحصت الولد محمد وسعدت لأن جروحه لم تكن خطيرة . ولكى أهدىء من توتره عرضت عليه أن أهاجم معه أقارب عمر افندى وأن نحرره منهم بالقوة كما أخذوه بالقوة . وقد سقطت هذه الفكرة كما هو متوقع ، فان تنفيذها لم يكن سيجلب لنا الا سيلا من الضربات بالنابيت وغيرها من الأسلحة الشبيهة . لكن الشاب (الولد محمد) استعداد رضاه عن نفسه واستعداد روحه العالية بقليل من المديح الذى هو جدير به « لشجاعته » .

ولا يجب أن يتخيل القارئ أن مثل هذه الأعمال الطائشة تعد من الأمور الجادة فى شبه جزيرة العرب . فالأب لم يعاقب ابنه وانما تناقش معه ليعود لبيته لأيام قلائل قبل أن يسافر لمصر ، وهذا ما حدث فعلا ، فقد قابلته بعد ذلك بفترة يسيرة - على غير توقع - فى شوارع القاهرة .

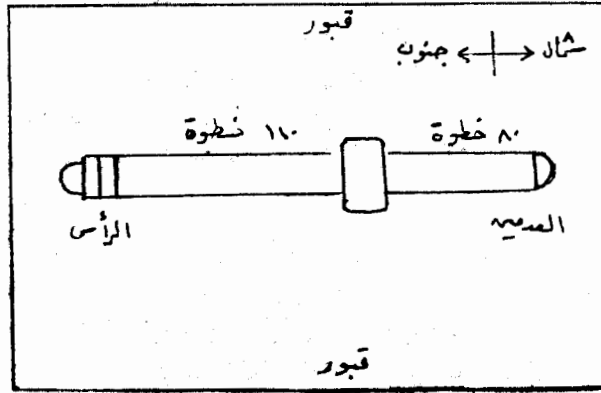
ولما فقدت رفيقى قررت ألا أضيع وقتا فى البحر الأحمر وانما أعود لمصر بأسرع ما يمكن . وكان الولد محمد قد ادخر كثيرا جدا من الحبوب اشتراها بمالى واحتفظ لنفسه بكل ما كنت قد استغنيت عنه ، والمخ الى أن أرسل له بعد عودتى للهند عشرين دولارا هدية ، واستأذن فى الرحيل ورحل ببرود لم أتوقعه . وبعد ذلك ببضعة أيام شرح لى الشيخ نور سبب بروده هذا . فقد كنت قد اصطحبت الشاب (الولد محمد) معى على سطح باخرة ، وهناك اعتراه الشك فى شخصيتى ، فقال للشيخ نور : « الآن فهمت . » ان سيدك صاحب A Sahib من بلاد الهند . لقد ضحك على ذقوننا وقد ودع الولد محمد الشيخ نور بالبرود نفسه الذى ودعنى به . لقد سكر هذان الشابان اللذان يتسمان بالكفاءة - معا ، فقام الولد محمد « بدب » أصابعه الخمس فى عيني الشيخ نور . وكان الولد محمد قد تعلم شرب المسكر فى اسطانبول . وقد اعتبر نور - خطأ منه - مثل هذا التصرف بمثابة رغبة فى اصابته بالعمى ، فشكا الى ، لكننى تعاطفت تماما مع الطرف الآخر (الولد محمد) وسألت الهندى لم لم يرد التحية ، وكان الولد محمد (المكى) قد تعرض ذات مرة للمميان Miyan بالسخرية والاستهزاء .

ولم يكن سهلا أن يمضى المرء الوقت فى جدة ، ففى الميدان المواجه لنا ، كان ثمة شخص أبله آثارنا لدرجة أصابتنا بالاكنتاب والقرف ، فقد كان مبتهجا بتجواله عارى المؤخرة فى الوضع الذى يتخذه الانسان فى بداية قضائه حاجته ، كما يفعل سائر البؤساء ، ولما كان أهل جدة متحضرين جدا بحيث لا يكونون احتراما للجنون كما يفعل بعض المسلمين الآخرين ، فقد أجبروه - رغم صراخه وعراكه - على لبس قميص ولما خلعه ضربوه . وفى أوقات أخرى كانت المساحة الواسعة الواقعة أمامنا تشهد وصول حجاج ومغادرة آخرين لكن ذلك كان بمثابة طعام برد (فقد نكهته) فموسم الحج قد انتهى . وفى الوقت الذى بقى فيه الولد محمد ، كان معتادا أن يقضى وقته فى التشاحن مع بعض الهنود الذين كانوا يقيمون فى المكان المجاور لمكاننا ، وكانوا خليطا من رجال ونساء وأطفال . وبعد رحيله (أى الولد محمد) تعودت أن أقضى نهارى فى مقر نائب القنصل وهو تصرف قد لا يكون آمنا لكن اغراء مقابلة أهل وطنى - والثروة (الدردشة) عن العمل ، كان اغراء لا يمكن مقاومته . وقد قابلت هناك كبار تجار جدة ، ومنهم الخواجا سوير Sower اليونانى وأنتون M. Anton وهو مسيحي من بغداد وغيرهما . وتعرفت بخالد بك أخى عبد الله بن سعود السلفى (الوهابى) . وكان هذا العربى النبيل - ذات مرة - قد شغل منصب مقيد الجوابات Mukayyed al jawabat أو السكرتير فى القاهرة التى أخذه محمد على إليها . وهو شجاع ودود غير متحيز ومغرم بالأوربيين ومولع بالمسرات .

ولأن قدره أن يكون شيخا لقبيلته فإن رحالتنا لن يواجهوا صعوبة فى القيام برحلة للرياض ووسط شبه الجزيرة العربية .

اننى أشرع الآن فى القيام بآخر زيارتى . فخارج مدينة جدة ليس ثمة ما هو أجدر بالزيارة من أم البشر « ستنا حواء » فلقد ركبت أنا والولد محمد - ذات مساء - حمارين وعبرنا بوابة مكة واتخذنا اتجاها شماليا شرقيا فى سهل رملى . وبعد نصف ساعة وصلنا للمقام ووجدنا بابه مغلقا ، وكان « مقام ستنا حواء » يقع بين عرائش وأكواخ قدرة ومقاه بائسة خربة . وحالما وصلنا للمقام ، أقبل رجل يجرى - ربما كان يتابعنا منذ خرجنا من جدة - وكان يتبعه رجلان آخران ، وقد لحق بى هذا الرجل عند المقام فى الوقت المناسب وأدار المفتاح فى الباب بعناية خاصة ، ولما دخلنا المبنى المطلى باللون الأبيض راح يتكلم احتراما للمكان لكن بشكل مبالغ فيه .

وقد دُفنت « سقنا حواء » باعتبارها مسلمة تواجه الكعبة : قدامها للشمال ورأسها للجنوب (*) ، وخدما الأيمن مستند فوق ذراعها اليمنى والمقام بوضعه البسيط صدمة للرحالة القادم من بعيد ، فهو مجرد قبة صغيرة لها فتحة نحو الغرب ، وهى - القبة - مصممة على الفسق المعتاد فى الحجاز ويوجد تحتها وفى الوسط صخرة مربعة بوضع عمودى ومنجوتة لتمثل منطقة السرة فى الجسم البشرى لذا فان هذا الجزء - وكذلك القبة - يسمى السرة ، وقد وجهنى المرشد (الدليل) لتقبيل هذا الرمز الهيروغلىفى (١٩٩) وقد فعمست ما طلب ، وان فكرت للحظة انه فى ظل هذه الظروف - لا داعى اطلاقا لمثل هذا . ويعد أن صلينا هنا سرنا بمحاذاة الجدارين المتوازيين المنخفضين اللذين يحددان الاطار الخارجى للجسد ، وبدأت مسيرتنا من عند الرأس حيث نمت شجيرات صغيرة قليلة . وطول كل جدار من الجدارين المتوازيين حوالى ستة اقدام ، وبينهما - فوق رقبة حواء - يوجد قبران ، دفن فيهما - كما قيل لى - عثمان باشا وابنه ، وكان عثمان باشا قد رمى المقام . ولم



مخطط قبر حواء بجدة

استطع مجارة الولد محمد فى ملاحظاته ، فاذا كان طول أمنا حواء من الرأس للخصر ١٢٠ خطوة ، ومن الخصر لعقب القدم ٨٠ خطوة فلا شك أن شكلها (منظرها) كان الى حد كبير كالبطة ، وقد أجاب الشاب بسخرية انه شكر نجومه (١٩) لأن أمنا حواء قد ماتت وأنها مدفونة تحت الثرى والا لفقد هؤلاء الرجال معنى الخوف .

(*) اتجاه الكعبة المشرقة من جدة ليس جهة الجنوب - (المترجم) .

ويذكر ابن جبير (القرن ١٢ للميلاد) - فقط - القبة القديمة
التي بنيت على الموضع الذي توقفت فيه حواء وهي في طريقها لمكة .
وحتى الادريسي (١١٥٤ م) يؤكد أن قبر حواء موجود في جدة .
أما عبد الكريم (١٧٤٢ م) فيقارنه بالروضة ويصف قبة في وسطه ،
أما طرفاه (القبر) فينتهيان بحواجز من أوتاد خشبية . وكان محيط
القبر مائة خطوة وتسعين خطوة بخطواته هو (أى عبد الكريم) ، ومن
رحلات روك Rook's travel نعرف أن القبر يبلغ طوله عشرين
خطوة . أما على بك (العباسي) الذي زار جدة مرتين فلم يشر إلى قبر
حواء ، مما يجعلنا نستنتج أن السلفيين (الوهابيين) قد دمروه . وقد
قيل لبوركهارت الذي نقل عنه مؤلفونا بعناية - أن القبر كان مجرد بناء
من حجر غير مصقول يبلغ طوله أربعة أقدام ، وارتفاعه ما بين قدمين
إلى ثلاثة أقدام ، وكذلك عرضه ، مما يجعله شبيها بقبر نوح في وادي
البقاع Al-Buka'a في سوريا . وقد كتب بروس Bruce*)
أنه : « بعد رحلة قوامها يومان من هذا الموضع (جدة أو مكة ؟)
يوجد قبر حواء من طين معشوشب Green Sod (؟) ويبلغ طوله
حوالي خمسين ياردة ، ولا زال موجودا إلى الآن » وربما لم يخرج
الرحالة العظيم من بوابات جدة . والسير هاريس Harris
الذي لم يستطع زيارة الأماكن المقدسة ، يكرر أنه في سنة ١٨٤٠ كان
قبر حواء لا زال موجودا على السواحل القاحلة للبحر الأحمر . من
الواضح أن البناء الحالي للقبر حديث ، وقديما - كما قيل لى في
جدة - كان القبر عبارة عن حجر عند الرأس وآخر عند القدمين ، وقبة
عند السرة .

لقد كان صنم أهل جدة أيام الجاهلية يسمى الصخرة الطويلة ،
وربما كان حجر حواء هذا مجرد أحياء البس لبوسا إسلاميا لصنم
جدة القديم (للوثنية الجاهلية) ؟ ويجب ملاحظة أن العرب يناقضون
أنفسهم فيما يتعلق بأبعاد قامة المدفون ، وذلك إذا كانت القبور تمثل
دليلا على ذلك ، فقبر آدم في مسجد الخيف - مثله في ذلك مثل قبر
حواء - هائل جدا أو عملاق . وقبر نوح في البقاع يمثل جزءا من قناة
سحب ماء ويبلغ طوله ثمانين وثلاثين خطوة ، أما العرض فخطوة ونصف
الخطوة . وقبر Job (؟) بالقرب من الحولة Hulah
(على بعد سبعة فراسخ من كربلاء) صغير ، ولم أر قبر موسى في
جنوب شرق البحر الأحمر - الذي أصبح موضعا مشهورا بسبب أكواب
الغار أو الحمر (بفتح الحاء والميم) التي تباع للحجاج هناك ، أما قبر
هارون في شبه جزيرة سيناء فأبعاده معتدلة .

(*) لم يزر بروس مكة المكرمة - (المترجم) .

وقد قدمت دولارا للحارس عند مغادرتي مقبرة حواء ، وقد تقبل الحارس المبلغ بامتعاض لأن شخصا وقورا مثلى لا يجب أن يدفع مبلغا تافها كهذا . ولم يقتنع أبدا بقولنا له ألا يتوقع من درويش أفغانى - مهما كان تقيا - أكثر من هذا . وفى اليوم التالى شرح الولد محمد سبب صراحة الرجل وعدم رضاه - فقد اختلط عليه الأمر وظننى باشا المدينة (المنورة) .

★ ★ ★

وهكذا انتهت رحلاتى الى حين فركبت فى السادس والعشرين من سبتمبر السفينة (الدورقة Dwarka) وقد أرمقنى التعب وأنهكتنى الحرارة الشديدة - وكنت ممتنا للكرم واللفظ اللذين شملنى بهما السيدان : ولى Wolley (القائد) وتايلور Taylor (كبير الضباط) ، واندعشت - للحظة - كيف أن الحجاج الأتراك المتزاحمين فى السفينة لم يقذفوا بى الى البحر . وفى الوقت المحدد وصلت للسويس .

وهنا نفترق - عزيزى القارئ - فلتصغ الى مائة وأنا أنهى هذه الرواية الشخصية لرحلتى للحجاز بكلمات الرحالة فا - هيان Fa-hian فهذا الأخ الذى مضت عليه حقب طويلة لا يزال حيا فى ذاكرة الانسانية . يقول فا - هيان : « لقد تعرضت للأخطار ونجوت منها ، وعبرت البحار ولم استسلم لأشد أنواع التعب فقد كان قلبى يفتلج بالشكر والعرفان لأن الظروف أتاحت لى تحقيق أهدافى التى كنت أطمح لتحقيقها » (١٥) .

نهاية الجزء الثالث والآخر .

(١٥) يجد القارئ الراغب فى مزيد من المعلومات تفاصيل عن القبور الاولى وقبور الانبياء فى : "Unexplored Syria, 1, 33-35" .

(المترجم) .

اقرأ في هذه السلسلة

- أحلام الإعلام وقصص أخرى
الإلكترونيات والحياة الحديثة
نقطة مقابل نقطة
الجغرافيا في مائة عام
الثقافة والمجتمع
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢)
الأرض الغامضة
الرواية الانجليزية
المرشد إلى فن المسرح
آلهة مصر
الإنسان المصري على الشاشة
القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة
الهوية القومية في السينما العربية
مجموعات النقود
الموسيقى - تعبير نفسي - ومنطق
عصر الرواية - مقال في النوع الأدبي
ديلان توماس
الإنسان ذلك الكائن الفريد
الرواية الحديثة
المسرح المصري المعاصر
على محمود طه
القوة النفسية للآهرام
فن الترجمة
تولستوى
ستندال
رسائل وأحاديث من المنفى
الجزء والكل (محاورات في مضممار
الفيزياء الذرية)
التراث الغامض ماركس والماركسيون
فن الأدب الروائي عند تولستوى
أدب الأطفال
أحمد حسن الزيات
- برتراند رسل
ي . رادونسكايا
الديس مكسلي
ت . و . فريمان
رايمونت وليامز
ر . ج . فوربس
ليسترديل راى
والتر السن
لويس فارجاس
فرانسوا دوماس
د . قدرى حفى وآخرون
أولج فولكف
هاشم النحاس
ديفيد وليام ماكذوال
عزيز الشوان
د . محسن جاسم الموسوى
أشرف س . بى . كوكس
جول ويست
بول لويس
د . عبد المعطى شعراوى
أنور المعداوى
بيل شول وأدبنيث
د . صفاء خلوصى
رالف ثى ماتلو
فيكتور برومبير
فيكتور هوجو
فيرنز ميزنبرج
سدنى هوك
ف . ع . أدنيكوف
هادى نعمان الهيتى
د . نعمة رحيم المزواوى

د . فاضل احمد الطائي

جلال العشري

هنري باربوس

السيد عليوه

جاكوب برنوفسكي

د . روجر ستروجان

كاتي ثيز

ا . سبنتر

د . ناعوم بيتروفيتش

جوزيف داهموس

د . لينوار تشامبرز رايت

د . جون شندلر

بيير البير

الدكتور غبريال وهبه

د . رمسيس عوض

د . محمد نعمان جلال

فرانكلين ل . هاومر

شوكت الربيعي

د . محيي الدين احمد حسين

تأليف : ج . دادلي اندرو

جوزيف كونراد

د . جوهان دورشنر

د . محمد أسعد عبد الرؤوف

د . السيد عليوة

د . مصطفى عناني

صبري الفضل

د . احمد حمدي محمود

جايرييل باير

انطوني دى گرمبيني

وكينيث هينوج

اعلام العرب في الكيمياء

فكرة المسرح

الجحيم

صنع القرار السياسي

التطور الحضاري للإنسان

هل نستطيع تعليم الاخلاق للأطفال

تربية الدواجن

الموتى وعالمهم في مصر القديمة

النحل والطب

سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى

سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء

مصر ١٨٣٠ - ١٩١٤

كيف تعيش ٣٦٥ يوما في السنة

الصحافة

اثر الكوميديا الالهية لدانتى في الفن

التشكيلى

الادب الروسى قبل الثورة البلشفية

وبعدها

حركة عدم الانحياز في عالم متغير

الفكر الأوروبي الحديث (٤ ج)

الفن التشكيلى المعاصر في الوطن العربى

١٨٨٥ - ١٩٨٥

التشنج الاسرية والابناء الصغار

نظريات الفيلم الكبرى

مختارات من الادب القصصى

الحياة في الكون كيف نشأت واين توجد؟

حرب الفضاء

ادارة الصراعات الدولية

الميكروكمبيوتر

مختارات من الادب اليابانى

الفكر الاوى الحديث (٣ ج)

تاريخ ملكية الاراضى في مصر الحديثة

اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة

كتابة السيناريو للسينما
الزمن وقياسه
أجهزة تكييف الهواء

دوايت سوين
زافيلسكى ف . س
إبراهيم القرضاوى

الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى
التجربة اليونانية
مراكز الصناعة فى مصر الإسلامية
العلم والطلاب والمدارس

بيتر رداى
جوزيف داهموس
س . م بورا
د . عاصم محمد رزق
رونالد د . سمبسون
ونورمان د . اندرسون
د . أنور عبد الملك

الشارع المصرى والفكر
حوار حول التنمية الاقتصادية
تبسيط الكيمياء
العادات والتقاليد المصرية
التذوق السينمائى
التخطيط السياحى
البذور الكونية

والث روستو
فرد . س . هيس
جون يوركهارت
آلان كاسبىار
سامى عبد المعطى
فريد هويل

دراما الشاشة (٢ ج)
الهيرويين والإيدز

شاندرا ويكراما مسينج
حسين حلمى المهندس
روى روبرتسون

صور أفريقية
نجيب محفوظ على الشاشة
الكمبيوتر فى مجالات الحياة
المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء
الهندسة الوراثية
تربية أسماك الزينة
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)

دوركاس ماكلينتوك
هاشم النحاس
د . محمود سرى طه
بيتر لورى

بوريس فيدروفيتش سيرجيف
ويليام بينز
ديفيد الدرتون
جمعها : جون ر . بورر

وميلتون جولدينجر
أرنولد توينبى
أحمد محمد الشنوانى

د . أحمد حمدي محمود
د . صالح رضا
م . ه . كنج وآخرون
جورج جاموف

الفكر التاريخى عند الإغريق
كتب غيرت الفكر الإنسانى
الفلسفة وقضايا العصر ج ٣
قضايا وملامح الفن التشكيلى
التغذية فى البلدان النامية
بداية بلا نهاية

الحرف والصناعات في مصر الإسلامية
حوار حول النظامين الرئيسيين

للكون

الارهاب

اختاتون

القبيلة الثالثة عشرة

الأساطير الاغريقية والرومانية

التوافق النفسي

تاريخ العلم والتكنولوجيا

الدليل الجيولوجي

لغة الصورة

الثورة الاصلاحية في اليابان

العالم الثالث غدا

الاقتراض الكبير

تاريخ النقود

دليل تنظيم المتاحف

التحليل والتوزيع الأوركسترالي

الشاهنامه (٢ ج)

الحياة الكريمة (٢ ج)

كتابة التاريخ في مصر ق ١٩

قيام الدولة العثمانية

العثمانيون في أوروبا

عن النقد السينمائي الأمريكي

ترانيم زرادشت

السينما العربية

سقوط المطر وقصص أخرى

جماليات فن الاخراج

التاريخ من شتى جوانبه ٣ ج

الحملة الصليبية الأولى

التمثيل للسينما والتلفزيون

الكنائس القبطية القديمة في مصر ٢ ج

رحلات فارتينا

انهم يصنعون البشر

في النقد السينمائي الفرنسي

د السيد طه أبو سديرة

جاليليو جاليليه

أريك موريس ، آلان هو

سيريل الدريد

آرثر كيستلر

أحمد رضا

توماس ١ هاريس

ر ح ٠ فوريس

مجموعة من الباحثين

روى أرمز

ناجاي متشيرو

بول هاريسون

ميخائيل ألبى ، جيمس لفلوك

فيكتور مورجان

آدمز فيليب

اعداد محمد كمال اسماعيل

الفردوسى الطوسى

بيرثون بورتر

جباله كرابس جونيور

محمد فؤاد ، كوبريلى

بول كولنر

ادوارد ميرى

اختيار / د فيليب عطية

اعداد / موني براخ وآخرون

نادين جورديمر

زيجموند هبتر

ستيفن أوزمنت ،

جوناثان ريلى سميث

تأليف / تونى بار

الفريد ج ٠ بتلر

رودريجو فارتينا

فانس بكارد

اختيار / د رفيق الصبان

بيتر نيكولز	السينما الخيالية
بوتراند راصل	السلطة والفرد
بيارد دودج	الأزهر في ألف عام
ريتشارد شاخت	رواد الفلسفة الحديثة
ناصر خسرو علوى	سفر نامه
نفتالى لويش	مصر الرومانية
جاءه كرابس جوثيور	كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر
هربرت شيلز	الاتصال والهيمنة الثقافية
اختيار / صبرى الفضل	مختارات من الآداب الاسيوية
ج. س. فريزد	الكاتب الحديث
اسحق عظيموف	الشموس المتفجرة
لوريتو تود	مدخل الى علم اللغة
ترجمة / سوريال عبد الملك	حديث النهر
د. ابرار كريم الله	من هم التتار
اعداد / جابر محمده الجزار	ماستريخت
ه. ج. ولز	معالم تاريخ الانسانية ٤ ج
مارجريت روز	ما بعد الحداثة
جوستاف جرونيباوم	حضارة الاسلام
ستيفن رانسيما	الحملات الصليبية
ارنولد جزيل وآخرون	الطفل ٢ ج
جلال عبد الفتاح	الكون ذلك المجهول
بادى اوينمود	افريقيا الطريق الاخضر
محمد زينهم	فن الزجاج
رتيشارد ف. بيركون	رحلة بيرتون ٣ ج
بيرتون	السحر والعلم والدين
برنسلو ومالينوفسكى	الرابع الهجرى
ادمز مقرر	الحضارة الاسلامية فى القرن
فاسكو داجاما	رحلة فاسكو دا جاما
ايفرى شاتزمان	كوننا المتمد
سوئدراى	الفلسفة الجوهرية
مارتن فان كريفلد	حرب المستقبل
فرانسيس ج. بروجين	الاعلام التطبيقي